رواية
التي
مولاي أحمد مولاي عبد الحمن

رواية

التي

مولاي أحمد مولاي عبد الحمن

© 2025
جميع الحقوق محفوظة

رواية: التي
تأليف: مولاي أحمد مولاي عبد الرحمن

لا يجوز إعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه،
أو تخزينه في نظام استرجاع المعلومات،
أو نقله بأي شكل من الأشكال أو بأي وسيلة،
إلكترونية كانت أو ميكانيكية،
بما في ذلك التصوير أو التسجيل،
دون إذن خطي مسبق من المؤلف،
باستثناء الاقتباسات القصيرة لأغراض المراجعة أو الدراسة.

الطبعة الأولى
2025

إلى الغارقين في لجج الأحلام..
إلى الصارخين بالحب دون صوت..
إلى الصابرين أبدا في محطة انتظار..

إليكم أهدي هذه الرواية..بكل حب

التي..

فاترة الطموح..
ناعسة الرغبات..
فماذا يلزمني أن ألهث خلفك كل هذا اللهاث..
ماذا أحب فيك..؟

إن جدلية العشق أمر لا مرد لسعيه، خصوصًا لجوالة الأدب، صغار العم روميو، وأحفاد جدي الملوح. نحن نسكن دائمًا قصة ما، ونعيش أحداثًا من خيال مترف باللامنطق، وكل شيء لدينا بمقدار الشعور المحض. وحين يلتزمنا عشق فإننا لا نتعرف على وسطية حياله، وإنما نقابله باجتياحنا الكلي.
وقد حدث ذات شعر أن دعتني نظرة فاترة، فاستجابت مني كل الكوامن ذرة ذرة، وكنت أتعشق فيها كل شيء ولا شيء فيها. لا كيان. كارثيتها أنها محض فكرة عبرت فاستقرت، وتملكت جوانحي بمطلق الجموح.

ليس فيها ما أشتهيه، وقد اشتهيت كلما جاءتني به من سماوية الروح. نقية كالسماء، لا يشوبها نقص، ولا دونية تستحل لها منطقًا. فهي الحورية المنبثقة من جناح الأبدية. حضرت، وخفت كل شيء، وامتلأتُ بفكرة... فيا ويحي مما تعبّأت به.
أذكر أنها رافقتني منذ صباي دون التمركز في شخص أسكن إليه. بدأت فكرة ساذجة مستقاة من مجاز الأدب، وانتهت منهجًا حياتيًا لا يقبل الإقالة.

من الغريب أن يعتنق شخص حبًا أثيريًا لا يتطلب شكلًا، كأن الروح تستكمل مطلبها السماوي منفصلة عن طينة وعائها، أو أن شهوة الجسم قد استحالت خاطرة أدبية لا تحتاج كتلة الأنثى لإفراغ جموحها. كل شيء تعلق بعاطفة الحب جاءني على هيئة المثل الفلسفية اللاكيانية.
ولا أدري منذ متى عاشتني هذه الفكرة، إلا أني متأكد أن الحب قد شكلني بيد من نور، وأفرط في عجني بالقيم حتى أصبحت أخلاقيًا حد النخاع.

ماذا يريد الحب مني ليخلصني من معقوليتي البشرية، ويبقيني على حافة التلاشي، بعيدًا عن كل ما يمت للواقعية؟ لماذا كنهي فضائلي بسذاجة؟ ولماذا أعشق كالرجال ثم لا أشتهي كالذكور؟ لماذا أنتظر أن يتشكل الطيف من تصوري فأعشقه؟
بين سطور أثير النمشي في روايتها في ديسمبر تنتهي كل الأحلام تقول على لسان «هذام» بطل الرواية بالحاجة إلى إشباع مقدساته الأربعة: العقل والروح والنفس والجسم. أتساءل دائمًا إن كان كل الرجال يمتلكون هذا الرباعي المقدس، أم أنه تصور أنثوي بحت عن جنسنا.

إن كانت تلك حقيقة، فلماذا لست معنيًا بغير مقدس وحيد: مقدس الروح؟ لا أنكر أني أحترم كل ما يشبع فضول عقلي، وأشتهي أن أطعم جسدي طيب الأكل، ولكن عاطفتي روحية باستماتة. نفسي طيّعة لقرارات عقلي وجموحي الروحي، ورضيّة بما أشبع به جسدي.
ومع ذلك أشعر أني أحتاج جموحًا لهذا الجسد؛ أحتاج ثورة شهوانية تذكرني بذكورتي، أحتاج إلى امرأة لا تجعلني أحزن بل تجعلني أشتهيها. امرأة تحرك داخلي فطرة الهبل العاطفي.

أظنها امرأة خليط، تتساوى فيها الملائكية والشيطانية. جمالها منفذ عادل، وطبعها مزاجي على قدر الحاجة. تعرف كيف تغريني ومتى تلامسني بعذوبة روحانيتها. لابد أن تكون امرأة أدبية إلى أبعد حد، وثورية كالطبيعة بكل تجلياتها المتناقضة، امرأة مصابة بحمى الجمال.
كان لدي في صغري دفتر، وهذا الدفتر كان يتجدد دائمًا لأنه يضيع دائمًا؛ فأنا لا أجيد الاحتفاظ بالأشياء.

كنت أحب أن أعود إلى ذلك الدفتر لأقرأ ما أكتبه لها. كنت أعود نفسي أن أهبها خاطرة صباحية، وأنتظر أن تأتي يومًا لتقرأ هذا الدفتر وترد عليه، كأنني على يقين أنها ستتجلى من حروفي وتخاطبني.

والعجيب أن هذه الحماقة لا تزال تتمسك بي؛ لازلت أنتظر قدومها بفارغ الحب والصبر، وأدخر لها شهوانيتي بوفاء طفولي.كثيرًا ما أمقت الأدب الذي شكل شخصيتي بهذا القدر من الجنون وصنعني كقطعة روائية، أو كجزئية من نظرية فيلسوف. ومع ذلك لا أحتمل الانفصال عن هذا الأدب الجائر، لأني مخلوق حبري لا يتجزأ عن الحروف ولا يكشطه ظفر من أوراقه.

وأنا ممتن للأدب كذلك لأنه منحني الفضيلة التي حُرم منها الكثير من رواده.

لطالما احتقرت فكرة أن يدنس أحد الأحرف بحجة الشاعرية. لم أقتنع يومًا أن الشتيمة أو اللفظ الرذيل أو الشهوانية المحضة يمكن أن تصنع أدبًا. حين نكتب فإننا نحاول الخلاص بذواتنا إلى سموها الروحي، وحين نقرأ فإننا نحاول أن نستقي دليلًا حيًا لهذا السمو.

وحدث أن توقفت عن قراءة رواية لكاتب أحبه حين سئمت من إفراطه في الجنسية التعبيرية، وشعرت لأول مرة بالجانب المأساوي للأدب.

لم تكن حياتي فضائلية جدًا كأحلامي، ولم تخل من التجارب النسائية. ومع ذلك فشلت في كل تجاربي أن أكون حبيبًا لائقًا؛ فشلت في استكمال أي قصة.

الغريب أن أكون جيدا حين أكون صديقًا. ربما لأن الصداقة سهلة وذات منطق بسيط، ولا يعتريها ما يعتري الحب من تناقض المشاعر.الحب مطلب ضروري، ومطلبي في الحب أن يكون استثنائيًا. أحتاج أنثى من غير الطبائع المألوفة، لها صفات حسن تحتكرها ملامحها عن باقي النساء.
أريد امرأة ذات جمال طاغٍ وخافت، تثير في نفسي نقيضين لا ينفصلان؛ تجعلني أقدسها وأشتهيها في الوقت نفسه.

امرأة تلهمني بطهر وتوسوس لي بخبث. امرأة يجعلني النظر إليها أرغب في أن أكتب، والتفكير فيها يغريني بمزيد من التفكير.
جمالها ثنائي المبعث؛ امرأة تنبثق من المستحيل لتستحيل حقيقة.
الغواية فن أنثوي بحت، وهي سلاح التملك النسائي الذي يحتاجه الرجال للبقاء قيد الوفا

لكنها قد تأخذ مجراها الدنيء حين تتحول إلى وسيلة لتفجير قنوات الرذيلة في النفوس، وفقع عين المجتمع بالآثام، فتتحول من إرث المرأة المقدس إلى لعنتها الإبليسية. يحدث ذلك حين يتم تداولها بحرية عمومية، وتصبح حقًا يتشرعه الكل للكل.

لهذا فإن التي تسكن أمنيتي تعرف فن التبديل بمهارة؛ تعرف حق العموم من العفة، وحق خصوصيتي من الميوعة، وتذرف الحقين بمقدار مدروس من الحاجة.

أنا في غنى أن أسألها حقًا أو ألقنها واجبًا؛ فأنا أكره السذاجة في جهل الحقوق، وأكره البلادة في التعامل مع هذه التفاصيل الدقيقة.

لست أتقن الزجر ولا الزئير في الوجوه، ولا أستطيب المشاجرة لإثبات أو تثبيت. البيت الخالي من الألفة كومة من الكره والشك واللاطمأنينة، وتلك حياة لا مستقر لروحي بين جنباتها.

أنا رجل يحتاج الهدوء حتى في أغلى غليان جنونه. يحتاج أن يُفهم وأن يُتفهم. رجل لا يطلب الكثير من البهرجة ولا يحب الأمور المتكلفة.

أكره المكياج لأنه يخفي طبيعة الجمال البسيطة وعفوية الحسن البريء.

الزينة في نظري لا تتعدى كحلًا وطلاءً خفيفًا على الشفاه. أما بشرة الوجه فأرى تدليسها جرمًا إنسانيًا في حق الجمال والفطرة والطبيعة.

وأستغرب كثيرًا من الرجال الذين تستثيرهم كثرة المكياج. أين وجه الغواية في غياب الأنثوية خلف هذه البهرجة المتوحشة؟

ما الفرق إذن بين المرأة والمهرج إن كان كلاهما يلطخ وجهه بمخلفات الطمع الصناعي؟
المرأة ينبغي أن تسلك مسلك الحورية في طلتها؛ يجب أن تتجلى الروح في رقة شفافة من خلال محيا الأنثى.
كبت الروح باللون — حتى إن كان بياضًا ناصعًا — يفقد الأنثوية ذاتيتها لدى المرأة. لذلك فامرأتي لابد أن تكون صافية كالماء، ناعمة كالرمال، في أحلى حالات البدائية.
جميلة لأن طبعها الجمال، لا لأنها ذات جمال مغتصب.
الجمال المغتصب حالة من الثقل الجاثم على الفطرة، لا يتسع لها قبول في طبيعة النفس البشرية.

الحب والليل، وتوق بلا مرجعية... آه يا وجع اللامستقر.
ألهذا يقولون إن الليل فجائعي؟ يتحين فينا فراغ الطلب وضجيج السعي ليضخ الأفكار بما أوتي من قوة سكونه، ويوقظ الجراح المركونة في جعبة الذاكرة.
الليل لا يلطف بالعشاق، خصوصًا عشاق الأطياف، الباحثين دومًا عن قرارة يودعون فيها أشواقهم، عن صورة يسكن إليها حنينهم. الليل لا يرأف بضلال الأدب، والليل لا يرأف بي.

يمسكني من أوتار مهجتي، و يخنق داخلي صوت الحلم، لتتلوى أحزاني في صرخة مكتومة، وتتولد من قهري أحزان جديدة.
الليل هائج بالحب، ينزُّ عشقًا.
ترى هل الحب هو ابن الليل الشرعي؟ يولد من رحم سكينته ويتربى على عهده بالنفخ في الأخيلة؟و بعث ما تهيأ من كوامن الأشواق!

هل الحب كرامة الليل التي يلعن بها ذوي الشعور المرهف، ذوي الأحلام المتقدة، ذوي الأدب؟
لابد أن الحب شقيق الأرق؛ رفيقه في الوسادة والمضجع، وفي الذاكرة، الأرق يسكن على مقربة من جراحنا التي كظم النهار غيظها، يوقظها عند أول انبساطة لجناح الليل. الأرق يتهيج من هذه الجراح التي تتخمر فينا لتستحيل عينا مفتوحة لا تعرف الرمش، و جرحي هو يأسي... أو بالأحرى أملي المعطوب من لا معقوليته.

جرحي «هي». تلك المخلوقة من حناياي وجعًا شهيًا يلفني بحزن لذيذ.
لماذا نحزن حين نحب؟ ولماذا نتلذذ بهذا الحزن بمازوخية مفرطة؟
أَلأن الحزن يهيج فينا حرقة الكتابة ويمنحنا القدرة على الانسكاب فوق الورق؟
أم لأن الحزن جدير بالتوقير لأنه يرتقي بنا عن السطحية القاتلة للفن؟
الحزن رفيق العظمة. ربما لأنه من كائنات الليل، وكائنات الليل عميقة.
الحب والأرق والحزن كائنات لا تحسن الطفو؛ إنها فقط تغرقنا معها في أعماق النفس.

أتساءل أحيانًا: منذ متى وأنا على هذه الحال؟ منذ متى وأنا قيد حلم معلق؟
غريق مطلب لا ملامح له، أسبح في طوفان الاحتمالات ولا أرسو على يقين.
غير أنني ذات مرة تذكرت صباي... أيام كنت في الابتدائية.
كان لي صديق مقرب، صديق أمكنني أن أثق به ثقة راسخة، لأنه أكثر من وثق بي طوال عمري.

تعلمت من هذا الصديق أن أعلى مراتب الثقة أن يثق شخص بأحلامنا.
فمن السهل أن نثق بمهارة شخص أو بأعماله، ومن السهل أن نثق بوعوده، لأن ذلك كله مطروح على طاولة الفحص، ولأن تاريخه يحدد لنا بوضوح أنه أهل لتلك الثقة. أما أن يثق أحد بأحلامك، فتأكد أن هذا الشخص لم يدخر عنك إخلاصًا. هذا شخص أحبك بصفاء وديع، وأعطاك زمام عقله.
والتاريخ أصدق شاهد على ذلك. ففي أحد الأزمنة القديمة، وبين سواعد الجهل وعلى جنبات الخرافة والوثنية، آمن رجل بحلم صديقه الذي يدعو للتحرر من القيود التي تكبل سواعد العقل.
لم يجادله في كلمة قالها، بل استقى منه أفكاره وشربها، وأمعن في الوفاء له.
وحين جاءه قومه يسعون لرده عن هذا اليقين بصديقه، وأخبروه أن صديقه يزعم أنه عبر الفضاء وتجاوز السماوات السبع ليلقى خالق الكون، وأنه طاف بالأرض على ظهر مخلوق يدعى البراق في ليلة واحدة، لم يزدهم الرجل على قوله:
"إن كان قالها فقط صدق."
وصديقي هذا ممن آمنوا بأحلامي. دعمني عليها مهما كانت ساذجة.

كان ينفق ما أمكنه على أحلامي دون أن يشعرني يومًا بمنٍّ على ذلك.
شاركته أول قصة حب طفولي ساذج في حياتي، كنا نذهب معًا لنقف في طريق فتاتي الصغيرة، نراقبها وهي تسير مع صديقاتها نحو المدرسة، لم أكن أفعل شيئًا سوى النظر إليها، ثم نعود أدراجنا، وكان ذلك بالنسبة لي قمة العشق.

لم أكن أعرف حينها معنى الحب ولا تفاصيله، لكني كنت أشعر بسعادة طاغية لمجرد رؤيتها في الطريق أو في ساحة المدرسة.
وأعتقد كثيرًا أن تلك الطفلة التي أجهل عنها كل شيء هي بداية حلمي المجنون. رغم أني لا أعرف إن كنت سأحبها الآن إن التقينا، أو إن كانت ستبعث في داخلي أي شعور.
لكن حلم الحب ولد معها، وصديقي آمن بهذا الحلم منذ مولده.

سألتني ذات جنون ماذا أحب فيها، فألجمني الصمت.
من الغريب أن يتملكنا الصمت حيث تتحدث بنا الأحلام، ونصبح نحن محض مجاز.
كيف للمجاز ألا يجد طريقه للتعبير!
حقا، ماذا أحب فيها؟
ماذا أحب في شخص ليس بشخص؟

هل هو ذاته ما أحبه بن الملوح في ليلاه؛ الحرمان؟
النفس طبعها معاند، ومن المعهود لها ألا تتعلق إلا بما منعته.
فهل أنا تواق لِـ"التي" لأنها يستحيل أن تكون؟
هل يستحيل حقا أن تكون؟

أم أنها فقط ليست وليدة صحرائي وجفافها؟
ربما في إحدى حدائق دمشق تكون جالسة على أرجوحة تحت شجرة رمان.
أو ربما هي عالقة في تشابك زمني بين ماضيها وحاضري.

لابد أنها من غير الزمن.
أو ربما من غير العالم.
هل يمكن أن تصح نظريات تعدد الأبعاد، وأنّي وإياها من بعدين مختلفين؟
لعلنا فكرتين يتعاطاهما الأثير، لهذا نلتقي دائما في أفكارنا فقط.

لعلّ...
أي لعل هذه التي ترتكبني حماقةً.
أنا الآن بت أوافق أتير النمشي في أن الحماقة هي من ترتكبنا أحيانا.
نحن خطيئة أفعالنا وليس العكس.
ولكن ما معنى هذا؟
أنا لا أعرف حقا.

أحب فلسفة أتير في روايتها "في ديسمبر تنتهي كل الأحلام"، رغم أني لا أعرف لماذا تلعن شهر ولادتي.
لماذا تحاول أن تجعلني أكره شهرا أحترمه بشدة؟

أجمل عبارة قرأتها لأتير في روايتها هي:
"جمالك مريح".
العبارة التي نطقها هذام بسذاجة صادقة،
ولكنها لم تكن عبارة ساذجة أبدا.
إننا نحتاج في الحب أن نرتاح.

أن نستقي من وجوه معشوقينا سكينة روحية.
ربما لهذا أكره المكياج، لأنه يفقدني ذلك الإحساس بالراحة.
إن الجمال المريح هو جمال صادق، طبيعي، ومسالم، وكم نحتاج السلم في الحب، كم نحتاج الطمأنينة.
والطمأنينة في الحب هي ما يفتقده قلب كقلبي.
قلب يعشق بلا بوصلة.

إن الشتات الذي يحدثه فينا المجهول صلة رحم يؤدي الوجدان حقها بأكثر مما يحتمله الإحسان.
إنه أذية حلوة، ضياع شهي، ومرارة تبعث على الإدمان.

أحيانا أشعر بفقدان ذاتي، وبحاجة ملحة للعثور عليها في قصة تغمرني بالدفء بين طيات كتاب.
نحن لا نقرأ دائما لنستمتع، ولا لنتثقف، ولا لذات القراءة.
أحيانا نقرأ لنكون.

لنجد شيئا نسكن إليه.
وأحيانا نقرأ كثيرا، وننتقل من كتاب لآخر دون أن نجد ذلك المستقر الذي نبحث عنه، والحنو الذي نرغب فيه.
لأنه، وللأسف، ليس كل الكتاب يجيدون احتضان الذوات المبعثرة.

ليس كل الكتاب حنونين مع قرائهم.
أتعجب كثيرا من كتاب الفجائع، أولئك الذين يعتمدون على الصدمة لإبهارنا.
والغالب أن يكونوا من ذوي الحروف الأشهى، والأساليب الأكثر آخذية، فنلهث خلف جمال تعبيرهم بنهم جارف، لنصطدم أخيرا بنهاية دموية.
نهاية لا تتناسب مع حاجتنا للانتماء.

أحب الفانتازيا كثيرا.
لأن حبيبتي فانتازية بالمعنى الحرفي للكلمة.
حبيبتي أسطورة لا تتجزأ عن المجاز.

حقيقيتها في مجازيتها، وفي ترفها الأدبي، إنها التي يصعب علي تحديد اسم يليق بها، أعجزني التفكير في إحدى جلساتي مع خيالي، وأنا أجرد الأسماء في عصف ذهني.
فلم يحضرني إلا "نُوَار".

ولم أتهيب غرابته بقدر ما أحببته، فهو لم يكن نوّارة، إنما جاءني بذلك التمحيص، بتلك القافية السلسة. شعرت أن الاسم مزيج من عبق الورد وتجلي النور، فيه سلاسة وانسيابية، "نُوَار" بسيط وشهي.

أعرف أن الاسم لابد أن يكون موجودا في بقعة من الكون.
ولكن هل تملكه حبيبتي حقا؟
أم أني سأحتاج إلى استحضار اسم جديد لِـ"التي" حين نلتقي، لأن اسمها الحالي لا يليق بحبنا.
يالهذا الخبل...
ماذا أقول!

أرتجّ وأتلوى حرجاً من الموقف، وهو لأمر مزعج ومؤلم أن يشعر الرجل بالإحراج. قد يتحمل الرجال كآبة الدنيا وثقل مكاييلها وبلادة قسوتها، بل قد يتحملون الموت ولا يتحملون موقفاً محرجاً. الإحراج هو مطعم الذل في نفوس الرجال، هو قشعريرة الدونية في أرواحهم، وهو أشد مؤدب لسلوكهم. فقد يتحمل الواحد منا جثامة الحياة وكدر مواقفها بصدر رحب لألا يمر بلحظة حرج تبقيه قيد خزيه.

وياله من خزي يومها.

كنت أمر من نفس الطريق الذي أمر منه الآن، ولكن بدون سيارة، بل راجلاً في عودتي من السوق. ولم يكن عندي مكتب يومها، على الأقل ليس مكتباً خاصاً بي. كنت قد أسست مشروعاً صغيراً نصحني به صديق، وكنت كما لازلت شغوفاً بفكرة إنشاء المشاريع، وحلم الشركات حينها يراودني بل ويتملكني بشدة. وكان طموحي الأكبر أن أصير رجل أعمال ذا شأن، كانت تلك الأحلام تزهر بي في طريقي يومها، وقت مروري من هنا عند تقاطع الاستاد. كان الوقت ليلاً، والشرطة تمشط الشوارع القريبة ذهاباً وإياباً تحسباً للشغب المحتمل. الشغب الذي حضرت بعضه وجبنت.

كم أكره شعور الجبن في نفسي. وأتساءل كثيراً عن سر هذا الشعور، وكيف لنفسي التي يتنافى طموحها مع هذا المرض أن تتقبل مسراه فيها.

عند التقاطع تماماً كان هناك جمع من الناس الوافدة لا أعرف من أين، ربما كانت هناك مباراة كرة قدم، لا أذكر. ووسط هذا الزحام سمعت صوت صرخة. التفتُّ، كان شاباً يحاول إفلات جيب فضفاضته الواسعة من شاب آخر. وأثناء المشاداة أخرج الآخر سكينا ضخماً بدأ يلمع تحت بريق الأضواء، وأخذ يلوح به اتجاه الفتى الذي تمسك بجيبه، والذي يبدو أن به هاتفه.

اضطرب الجمع كله وتفرق هرباً. واضطربت محتاراً وقد أخذ مني الخوف مأخذه، و امتنعت به من الرجوع لمساعدة الشاب المسكين، الذي أفلت في النهاية، وهرب المجرم من ناحية طريق مظلم. كان الفزع منتشراً بين الجميع، ومرّ بي الجمع هارباً. خفت... وأكره كم خفت. وهربت مع الجمع.

ولا زلت أسمع الصرخة التي عجزت أن أستجيب لها.

ماذا يعني أن نكون رجالاً حين لا تحركنا حاجة مظلوم للنصر؟

وأخذتني وساوس من شكل مختلف. ماذا لو أن "التي" مرت بنفس الموقف؟ ماذا لو احتاجتني؟ هل سأعجز عن مساعدتها كما عجزت عن مساعدة هذا الشاب؟ هل سأبقى مسمّراً في مكاني ثم ألوذ هارباً كقط جبان؟

هذه التساؤلات لازالت تراود قلقي إلى الآن، وكثيراً ما تدفعني لأمتن أنني لم أقابلها بعد، بل تجعلني أحياناً أتمنى ألا نتقابل أبداً. كيف أقابلها بهذا الجبن اللصيق؟ لا يمكن أن تحب امرأة مثلها جباناً مثلي.

استدرت بالسيارة يساراً إلى ناحية السوق الكبير، مررت به وأنا أتذكر ذلك المشروع الفاشل، المشروع الذي لا يشبهني أبداً. كانت فكرة صديقي أن أفتتح كشكا لبيع حلي الفتيات، وكنت أكره جلوسي بجانب بضاعتي، ويشعرني ذلك بالحرج فأكرهه أكثر.

كانت طبيعة العمل في السوق أن يتنازع التجار الصغار وعمّال الحوانيت الزبائن من أنفسهم. كلمات لا تليق قد تستباح، وبعض الأفعال الخالية من اللباقة، وهذا ينافي طبعي بل يثير في نفسي الحنق. وكم كنت سعيداً حين تركت ذلك المكان، فقد تدبر صديقي بيع بضاعتي لتاجر آخر، وارتاحت نفسي كثيراً.

بعدها افتتحت مع صديق آخر محل بيع للخضار. كان عملاً مسالماً، أقرب لحفظ ذاتي. كنا ننتظر الزبائن ولا ننتزعهم من الشارع، وكانت بضاعة مطلوبة. كنت أجيد المعاملة مع المشترين بلباقة، وكان صديقي يجيد الحسابات، بل يدير العمل بشكل شبه كامل، لأنني كنت منشغلاً بوظيفة أخرى.

كنت أعمل كـ "داتا بيز" لشركة تابعة للدولة، تتمحور وظيفتي حول إدخال البيانات في برنامج الشركة. كان عملاً يمنحني الكثير من ساعات الفراغ، فكنت أجد وقتاً لأساعد صديقي في العمل. وهناك بدأت رحلة الأعمال بفضل ذلك الصديق.

واليوم أنا أدير شركة تصنيع تقوم بتعليب المواد الزراعية ، و

تنتج العصائر والأجبان. أما صديقي فلديه مزارع شاسعة لكل أنواع المزروعات، وشركة ألبان ضخمة، وعقارات كثيرة، وهو يمد شركتي بما تحتاج إليه من الثمار والألبان. وهكذا مازلنا نعمل معاً.

تحقق حلمي الكبير في أن أصبح رجل أعمال...

ولا يزال حلمي الأكبر معلقاً.

لا تزال "التي" في غيابات المجهول.

جرّدني الصبح من أحلام الليل، وباركني برتابة الواقع. أجمل ما في الصبح أنه يمنحنا الحقيقة مجردة من تطلعاتنا الخيالية، ومع ذلك فإنه لا يخلو من أحلامه، وأحلامه لا يمحوها الليل بل يزيدها هياجاً. أحلامه راسخة، وبالنسبة لي لم يبق لدي غيرها حلماً.

فتحت دفتري كعادتي الصباحية لأكتب لها ترنيمة صباحية قبل أن أقص عليها بعضاً من يومياتي. حدثتها قليلاً ثم أغلقت الدفتر، وضعته في حقيبة صغيرة وحملته أثناء خروجي.

تلوت بعض الخطوات المسرعة على مسامع الأرضية الرخامية لتستقبلني أمي في جلستها البهية.

كانت أمي أنيقة، صافية كالماء الزلال، على عكس أبي الذي لا يهتم بمظهره إطلاقاً. وهذه نقطة يكثر فيها خصامهما، أو خصامها عليه ومعاتبتها له على الأقل.

لم يكن أبي يرد على أمي بغضب حين تغضب، رغم أنه عصبي ومزاجي وصعب المراس. كانت تلك من الأمور التي تتجلى فيها عظمة أبي.

فأبي لم يكن غنياً ولا ذا شأن، ولم يكن يهتم حتى أن يكون كذلك. ولا وجاهة له إلا في محيطه الضيق الذي يختصر على أهله وأصدقائه. أبي عادي جداً، وتقليدي جداً، ولكنه يصبح عظيماً حين يتعلق الأمر بأمي.

ومع ذلك فهو لا يجيد الغزل، إنه من النوع الذي يعبر بأفعاله. وهو ملتزم في كل شيء، حتى في إصراره على حب أمي. لا أتذكر أنها أرادت شيئاً لم يسع لأجله، حتى وإن استدعاه الأمر أن يستدين، مع أن الدين أكثر ما يكرهه أبي.
ولم تكن أمي تطلب من غيره شيئاً، كانت كثيرة الدلال عليه، وكان رجلها الوحيد. لم تتحوج أبداً لأحد رغم أنها من عائلة ميسورة، وأخوتها ذوي سعة مادية. حتى أبوها الذي تعود دلالها لم يعد يجد من طلباتها اللحوحة شيئاً حين تزوجت.
اكتفت بأبي تماماً.

استقبلتني في الصالة بطلتها الحنونة، فقبلت رأسها وجلست بجانبها. سألتها عن أخي، فأخبرتني أنه اتجه للعمل.
يصغرني أخي بخمس سنين، وهو يعتبرني قدوته. وكم أنا سعيد حين وليته إدارة الشركة بعد تخرجه من الجامعة. أمكنني أن أرتاح كثيراً، وأن أخلو بنفسي في أغلب الأوقات، أن أقرأ كل الكتب التي كنت أؤجل قراءتها، وأن أقترب من ذاتي أكثر، وأن أفكر في "التي" أكثر فأكثر.
أخي شخص يعتمد عليه جداً، ومنذ وليته الإدارة لم أعد أحتاج أن أذهب للمكتب إلا قليلاً. وليس لحاجة العمل إلي، بل لحاجتي أنا أن أمارس عملاً. فرغم أن أخي يصغرني إلا أنه أكثر مسؤولية ورزانة.

هو الآن أب لطفل جميل، وزوجته طيبة وتحترم الجميع، وتحبها أمي كثيراً، وهذا يجعلني مرتاحاً على حال العائلة.
أما أختي فهي من نوع الصديق الذي ذكرته مسبقاً. تؤمن كثيراً بأحلامي. لم أشاركها يوماً حلمي العاطفي، لكنها كانت تعرف طموحاتي الأخرى كلها. كانت سندي في كل مرة خذلني فيها حظي، ومرجعيتي عند كل منعطف يأس.
كانت أماً وصديقاً.
الأخت هبة ربانية، عناية إلهية نُمنح منها الرحمة والحنو.
وأختي هي نعمتي التي لا يوفيها عمري كله حقها من الحمد.
وأنا ممتن أنها تزوجت رجلاً طيباً، وأنجبت أجمل بنت وأظرف رضيع.
عائلتي الصغيرة هذه تشكل سعادتي الكبيرة...
ولا ينقصها إلا شخص واحد.

إلى أي مدى يمكن أن يخترع الحب مجانينه؟
في الأشهر الثلاثة الأخيرة اكتشفت أني أعقل الثلاثة في مزرعتي الصغيرة التي طلبت من صديقي زراعتها لي على مقربة من مزرعته، وبنى لي فيها بيتاً صغيراً يتأجج بالدفء.
كنت تعودت أن أختلي بكتبي وأحلامي و"التي" مع كوب قهوة. وحدتي الجميلة زادتني اغتباطاً، فكنت أقرأ بشغف وأكتب لها بشراهة لا نظير لها، وكنت سعيداً بخلوتي قبل مجيء العجوزين.
ضحيتين نال الحب من عقليهما دون أن يترك أثره على الطباع. ويبدو أني الوحيد الذي أدرك جنونهما المكبوت. ولا أدري لماذا اختاراني أنا بالذات، وكيف ساقهما إليّ القدر من حيث لا أعلم.
وقارهما المزيف يخدع الكل بهما. وعبقريتهما في الرياضيات تجمعهما، ونظرتهما للكون تجعلهما على خلاف دائم. أحدهما مهندس فضولي أقحم أنفه في أمر حديقتي وأعاد تشكيلها بشكل غريب وملفت، والآخر على ما يبدو أستاذ رياضيات سحقته نظريات أينشتاين عن الزمكان.
وأنا... أنيسهما المشترك الذي يتعذب بخلافاتهما المتكررة.
ولا أعرف لماذا آنس بمسامرة عجوزين خرفين تاريخهما مشوب بالغموض والريبة. ربما لأننا نشترك جميعاً في هوسنا الجارف لفانتازيا الحب.

غير أني أعشق مجهولاً أعترف بعجزي عن إدراكه، وأطلبه مستقبلاً أشرق به، وهما يدعيان قصصاً تاريخية لحبهما الخيالي.

يخطرني الآن وأنا في طريقي إليهما هرطقة كوليبالي عن معشوقته التي أنقذته من إحدى اختراعاته.

كان يتحدث عنها وفي عينيه ألق لا يناسب وقار سنه، كأن روحه انخلعت من جدلية الفناء والكهولة لترتوي بالأبدية التي يدعي أن صاحبته تحرسها.

رأيته حينها كما لم أره من قبل.

طالما لفتتني قوة بدنه النحيل، وكأن الشباب لم يغادره، على عكس وجهه المجعد بهيبة وشعره المتوهج بالشيب. كان رأسه أبيض ما فيه، فبشرته قاتمة كليل الشتاء، وعيناه دافئتان كروح الصيف.

ولكنهما الآن أكثر دفئاً وأشد حرارة. يتطاير منهما شغف العشق بما يثير القلق والإعجاب.

لم أقاطعه أبداً وتركته يهذي حتى يرتاح. ففي كلامه ما يشبه رسائلي لها، وهذا يجعلني أنا أيضاً أرتاح.

أمر بسيارتي الآن على ضفاف النهر السخي على بلدانه، النهر الذي تشترك فيه موريتانيا والسينغال وتستغلان سخاءه الأبدي للري والزراعة.

لن أتكلم هنا عن تقصير بلادي في جودة استغلاله كما تقصر في كل شيء آخر غير ارتشاف الخيرات الجاهزة. لا يهمني الآن أن أوجه أي نوع من الملامة ولا يتملكني أي حنق.
لم يكن يوماً ما يحيرني أو يغيظني أن ينهب السياسيون مالاً عاماً، فأنا أرى أن كل حكومات العالم تفعل ذلك سراً أو علانية. ولكنني أحتار وأغتاظ من غباء المأدبة.
فالمليارات التي ينهبونها لن ينفعهم تخديرها في عقارات سويسرا، فأبعد المخافة أن يسائلهم عنها أحد. ألم يفكروا في استثمارها داخل الدولة؟
ليس من أجل إصلاح عام، فمن الحمق أن أرتجي لهم هكذا حسن نية، ولكن ببساطة من أجل أن تتكاثر وتتضاعف. فيصبح المليار خمسة، ويزدهر الاقتصاد، وتكبر قيمة العملة، ويكفون الناس البطالة فتكفيهم مخافة المظاهرات.
ربما هذه من أفكاري الساذجة.
ولكنني الآن غير معني حتى بهذه السذاجة.

ما يحضرني حقاً هو إثارة الضفة الشبيهة بشاطئ صغير لخيالات أحمد في نفسي، كهل الهوس الثاني.
كان أحمد على غير نحالة كوليبالي، وجسده كتلة قوية منحوتة العضلات. لونه بين البياض ولون القمح، أميل قليلاً للبياض، وتجاعيده منحصرة في أسفل عينيه. لولا شعره المتوهج لما لوحظت كهولته.

لا أعرف سر قوته. وسامته طاغية ولباقته تثير العجب.
أما جنونه فلا يظهر إلا أوان حديثه عن ماضيه، عن زوجته.
فعلى خلاف كوليبالي هو يدعي أنه تزوج حبيبته وأنجب منها، وهو على يقين أنها ستجده كما وجدته أكثر من مرة، في أكثر من مكان على وجه الأرض.
وهذا الشاطئ الطفل يذكرني الآن بإحدى نزواته المخبولة، حيث كان يقص لقياه بها أول مرة في شبابه على شاطئ نواذيب الكبير. يقول إنها انبثقت له من العدم، تشكلت من أحلامه.
تمنيت حينها أن تتحقق خرافته في حياتي أنا، أن يستحيل طيفها داخلي حقيقة.
ولكني خشيت من الخاطر. خفت أن أستحيل أنا خرفاً يتخيل حقائق لا واقع لها، وأن يتحول يأسي إلى انفصام أو تهيآت.
لا أعرف لماذا تذكرني قصته بـ"أوكتافيا" التي كانت تنتظر حبيبها عامين بسبب نبوءة عرافة تحتضر، ووجدته على الشاطئ وعرفت أنه هو حين نجا من الغرق.
ولكن أوكتافيا طردت "هيبا" بعد يومين حين عرفت أنه يعتنق ديانة العدو.
فهل تركته زوجته لشيء كذلك؟
أم تركها ولم يتحمل فراقها فجن؟
أم أنها ماتت وأنكر عقله ذلك؟

في الحقيقة يبدو لي من حكايات العجوزين أنهما ممسوسان.
ولكن كيف سأقنع عالمي رياضيات بوجود شيء كالمس؟
لن أفاتحهما في ذلك أبداً.
سأتجنب إحراج نفسي.

أشرقت.. فانتشر السرور في حناياي كتفاصيل الصباح، وتفاقم الحنين كأنوار الملكوت في قلوب الزهاد. وتيقنت أن الحرمان يورث التعلق، وهمت جلالاً في وقار عشقي، ووافَيْتها بالدمع لما تجلت في طهرها البتولي، وتجردت إليها من مثاقيل جسدي لنتساوى على حافة النور، فننصهر في حجب الأبدية لا نمل ما ننهل.
يا ولهي الماثل في خرافات فضائلي، متى يحل لي منك وصل واقعي؟ متى تكوني فأكون؟

لا يزال النهار يخلع بالكاد سترة الظلام عن قسماته، ورائحة الليل لم تتبدد بعد، وأنا على الخط الفاصل بينهما، أخترع زمني الخاص، وأنشد بين سواد النور وبياضه لونًا غير الرمادي. لونًا لا يلبسه الشك.
أبحث في طيات الجهل عن اليقين، وأحاول أن أنتحي للسلام سبيلاً في غبار الحروب الثائرة داخلي، وأُمد يدي إلى خيط الأمل في آخر لحظات التلاشي، لعلني أُخرج من السراب حقيقة لأمنيتي قبل أن تفجعني وقائع يوم من الصقيع المعتاد.
ما أشد صقيع الوحدة...
ما أفظعه من ألم.

بين جدران البيت الصغير فتح الضحى عينيه باتساع، وأحرقني بقسوة الحر كأنه ينبهني أن اليوم شديد... شديد الحر والمرارة.

فتحت عيني بتثاقل منهك، وأنا أشعر بوحدة قاتلة رافقتني منذ البارحة، حين عدت لمنزل المزرعة ولم أجد أياً من العجوزين هنا. كان السكون خانقاً، وخالياً من روح السكينة.
يبدو أني اعتدتهما جداً.
قمت أجتر جسمي لأغرقه في حمام بارد وأتلطف من حرارة الجو. وفي طريقي شعرت بشوق أشد مما يختلجني عادة، كأن يداً ثقيلة تطبق على صدري بجثامة قوية.
رغبت فيها كما لم أرغب منذ زمن طويل.

عدت إلى مشغل الصوت وأدرته، ثم رجعت خطواتي إلى الحمام، تحركني نوتات المقطوعة الموسيقية. وقبل أن أنجرف تحت المياه وصوت الشجن، غمرني دفء الصوت وحنانه، وتغشاني بطهر خالص.
غرد بي في عزلة من الكون، وشعرت أني أعود لأوليتي وأتلاشى في الماء الذي يغمرني حتى انصهرت فيه كلياً.
أي بهاء يا فيروز تجلى من سماوية شدوك، وأي كلمات جرفتها سيول الفن من أخيلتك للنور يا جبران...

"أعطني الناي وغنِّ
فالغنا سر الوجود
وأنين الناي يبقى
بعد أن يفنى الوجود."

جلست بعد حمامي في صالة الجلوس المطلة على الجهة اليسرى من باحة المنزل، قبالة الحديقة الغريبة التي كان يرعاها العجوز أحمد بعناية تذهلني أحياناً كما يذهلني تصميمها الغريب.

مددت يدي وتناولت من الطاولة أمامي كتاب يوسف زيدان "عزازيل"، وبدأت من حيث انتهيت آخر مرة، من الرق الذي يتحدث عن هيباتيا وقصة الآثامة الإسكندرانية.

شدني وصف هيبا لها حتى بدأت وساوسي تفوح، وشعرت بـ"نوار" تتجلى من حروفه. تساءلت إن كان استعار من خيالي لنحت موصوفته... وكيف وهو من غابر القرون؟
أيمكن أن عزازيله استرق السمع من سماء وجداني وأوحى له؟

هل يعبر هذا العزازيل الزمن؟

تناولت بقية الكتاب بسرعة فضولي، وتناولتني آلام قصصه بنهم جدير بالندم. صاحبتني روح هيبا المعذب وتساؤلاته المستمرة عن الديانة والإيمان.
وتمنيت أني بجواره لأصرخ فيه بقوة الجرح الذي لحقني منه وأقول له:
عن أي إيمان تتحدث يا هيبا؟
هذا جموح الطمع في النفوس، وضعف المنطق وسوء التصور.

لكن هيبا لم يعد موجوداً. وأظنه خلص إلى تحرره المنشود، حسبما أشار في رقه الأخير. سكب كل قلقه الإيماني وجروح تاريخه في حروفه وانطلق.
هيبا وجد العزاء في عزازيل.
وأظن أن عزازيله هذا لم يكن الشيطان الذي لعنته العصور ونبذته، بل كان شخصية هيبا نفسها حين أصابها الاضطراب وعذبها التساؤل.
فجرد من ذاته شخصية "عزازيل" ليحمل عنه وزر إجاباته. وارتاح. وتحرر.

أما أنا فبقيت عالقاً في جدال قصته بين حبيباته الثلاث وأستاذه المظلوم القس نسطور.

كان نسطور أقربهم للفطرة وأرجحهم في اعتدال المنطق حين قال إن الله أعظم من أن يولد من رحم، وأن يوجد كمخلوق. فالذي خلق – كما يقول مصطفى محمود – لا تترتب عليه سببيات مخلوقاته.

لكن نسطور نفسه وقع في تفصيلة ناقصة حين قال إن الرب تجلى مرة في المسيح ولا يمكن أن يحدث ذلك مرة أخرى لأنها معجزة.

فات نسطور و الجميع أن صورة الله لا تدرك بمدركات الإنسان. الله فوق التصور. لا تتجلى حقيقته إلا حين نعترف بعجز عقولنا عن إدراكها. إن الدين أبسط من كل هذا الجدل، الدين فطرة سليمة وتسليم كلي. الدين واح..مهما اختلفت الشرائع.

إن الدين جامع..إن الدين عند الله الإسلام.

غصت كثيراً في جدليات الكتاب، لكن قلبي مال إلى جدليات أخرى. أخذ يتذكر أوكتافيا وهيباتيا ومارتا.

لم أطِل التفكير في مارتا وأوكتافيا. كانتا في نظري امرأتين تجترئان بالحب على الحياء وتحلمان بشهوانية ومرارة.

أما هيباتيا...فكانت مختلفة.

رغم أنها لم تأخذ مساحة كبيرة من صفحات الرواية، فقد بدت مكتملة بشكل غريب. كان لها جمال مريح، وغواية طاهرة، ونضج أخاذ يبعث على التفكير الإبداعي.

كانت امرأة تحت على الكتابة.
ربما لهذا حاول هيبا أن يخلق منها من جديد، وأن يخلدها في اسمه حين اشتق من اسمها اسمه.
"هيبا"...
لتعيش فيه هيباتيا.

أخذتني غفوة من التفكير المجهد، ولم أستيقظ إلا على زيارة صديقي. ولا أعرف لماذا جاء الآن بالضبط، ليقلب موازيني.
قمت لأستحم وتركته مع الكتاب، لكني عدت لأجده يقرأ دفتري. فماذا نحى به ليفعل ذلك؟ هل هو القدر؟
لم أكن منزعجاً من فعلته، فلا شيء في دفتري أتستر عليه. فأنا لم أعتبر حبي لـ"نوار" يوماً جريمة، ولكني فقط لا أشاركه عادة.
"نوار"...
ما الذي يجعلني أصر على هذا الاسم، رغم أني لم أعد أجد فيه ذات البريق الذي كان يشرق منه؟
لا أعرف لماذا بهت بعد رحيل العجوزين.
أذكر جلسة عصفي الذهني حين لاح لي هذا الاسم. كنت سعيداً به، منتشياً، وبعد برهة انتبهت لوجود "أحمد" أمامي فجأة. لم أكن أفطن لمجيئه، ربما لاستغراقي في التفكير.
التفتُّ إليه، وكان يبتسم بمكر حتى خُيِّل إليّ أن عينيه تبرقان باللون الأخضر.

ثم نطق الاسم.
ذهلت، ومرت بجسمي قشعريرة، فقلت منزعجاً:
– من أخبرك بالاسم؟
– هذا اسم زوجتي. لقد قلت سابقاً إن جلساتك القصيرة هذه من أجل أن تجد اسم فتاتك، فقلت ربما يعجبك الاسم.
– ولكنني كنت أفكر في هذا الاسم.
– أجل، لأني ألهمتك إياه.
ضحك بوقار ماكر، وقام يفعل شيئاً لا أذكره. وكدت أصدقه حينها، لولا أني أعرف أن ذلك المخبول بزوجته لا يُستنكر منه كلام كهذا.
بعض المصادفات تجعلنا أمام ذواتنا، وترسينا أمام يأسنا لنقرر: أنكمل طريقنا بمنطق وثبات، أم ننجرف نحو الجنون لنرتاح من أعباء العقل؟

ضم صديقي الدفتر ونظر إليّ بحنو، وقال بلهجة نصوحة:
"سافر."
كنت لا أزال في ذهلتي من عبارته. ما معناها؟
وضع الدفتر على الطاولة، ثم رجع بجسمه إلى الوراء واستراح على الأريكة. شبك ساعديه ووضع رجلاً فوق رجل، ورمقني بصمت وقور، ثم أضاف:
– إلى متى ستنتظر بيأس؟

كان الحوار قد بدأ. وكان يعرف مقتطفات كثيرة من هذه الأحلام، فقد كنت أحاكيه عنها كثيراً في رفقتنا القديمة أيام مشروع الخضار. والآن قد قرأ ما تيسر من الدفتر، وعرف أني لم أنضج عنها بعد.

فقلت باقتضاب:

– حتى تأتي.

– ومتى ستأتي؟ بعد أن تشيخ وتهرم؟ هل سينفعك الحب حينها؟ هل ستحبك هي أصلاً وأنت على تلك الكهولة؟ أم لعلها لن تأتي أصلاً؟

كان كلامه صادقاً ببرودة، ومنطقياً حد الإزعاج.

لم أجد له جواباً، فلذت بالصمت.

فأردف هو:

– انظر إلى العالم من حولك. أنا تزوجت رغم أني أصغرك بثلاث سنين، ولدي أبناء. وأخوك يملك عائلته الصغيرة، وكل أصدقائنا وأقراننا... فلماذا تبقي أنت نفسك في هذا الشتات؟

قلت بعد صمت:

– صدقني لا أعرف... لكني لا أقوى أن أتنازل. لا أعرف أن أعيش مع غيرها.

رمقني بنظرة لم أتبين مغزاها. ربما استنكر قولي "مع غيرها"، وأراد تنبيهي أنها غير موجودة.

فاستدركت:
– أعرف أني أسبح في خيالاتي، هذا ما تظنه أنت على الأقل... لكني فقط أحتاج أن أجد امرأة ترضي داخلي حوائجي الخاصة.
قال بصوت خافت وقوي، وبكلمات حانية:
– أنا لا أخبرك أن تتخلى عن أحلامك. أنا ألفتك أنها قد تكون في مكان آخر من هذا العالم. ربما تنتظرك في موضع ما هي أيضاً. لقد سعيت لتحقيق حلمك الأول، وأنت الآن رجل ميسور. لديك أخ يحبك، أخ مسؤول ومجتهد ويدير العمل أفضل منك... فما الذي يمنعك أن تسعى لحلمك الثاني؟
سكت قليلاً، ثم أضاف مازحاً:
– أنت الرجل... فعار عليك أن تنتظر هنا كالفتيات. السعي للرجال.
بعد خطبته الخاطفة خرج مُهاب، وتركني لصخب الأفكار.
مهاب شخص عملي، لطيف، لكنه لا يجيد المجاملات. هيئته لا توحي أنه وليد هذه البلاد؛ ملامحه أقرب لملامح أهل الشام. بياضه الصافي، ولحيته الكثيفة المهذبة، وحتى طريقة لبسه. لطالما كره الفضفاضة وقال إنها ليست عملية.
كان دائماً صديقاً نصوحاً. ورغم أني كثيراً ما أعارضه وأكابر كطفل حين ينصحني بتلك اللهجة القوية، لأني أشعر أنه يقرأني ويتجسس على أفكاري... إلا أني أعود لرأيه حين أخلو بنفسي.

والآن أشعر أني لا أريد أن أقاوم.
هناك شيء بداخلي يريد الاستسلام لهذه الفكرة.
أريد أن أسافر.
لم أحتج في عملي أن أسافر خارج حدود البلد. كان كل شيء هنا، والمواد التي أحتاجها كنت أطلبها من الإنترنت فتصلني من الصين دون حاجة للسفر.
أما الآن...
فسأسافر.
سأترك خلفي كل شيء.
وسأعود معها...
وإلا فلن أعود.
من اليوم ستنتهي مسيرتي كرجل أعمال، وسأبدأها من جديد كرحّالة...
أجوب البلاد لألتقي حبيبتي.
أجوبها بحثاً عنها...
عن "التي".

الْتباسْ..

علو شاهق..
هبوط إجباري..
و ارتطام أكيد..
هذا ما كنت أختنق به و أنا مشرع روحي مع جناحي الطائرة، كنت محشوا بخوفي من اصدامي بانطفاءة الأمل، و متوجس مما سوف يتخلل رحلتي في آخر محطاتها، هذه الرحلة الممتدة بين ثلاث أماكن مضت، و مكان أخير قررت أن أنهيها عنده، أجل، فعند الأوراس سأختم الرحلة، في مدينة العجائب سيتقرر حظي، و أستبين حقيقة حلمي، و حقيقة شيء آخر..
لن أتورط في مغامرة بعدها، و سأوقف فكرة الترحال، ربما كانت مجرد حماقة أن أخوض هذا الجنون من بدايته، من تلك الأمسية، من ذلك الحوار الذي شحذني بالهمة، و ارتميت به في أحضان الريح يغمرني الأمل، لأقابل أشخاصا لا علاقة لهم بالرحلة..
أم أن لهم علاقة، ربما ليس لشاب السقوط الحر و فتاته في نيويورك علاقة، كان لقاءهم صدفة غريبة، و لكن لذلك الرجل قطعا سر خفي، أمر يربطه برحلتي لا شك، و لعله من دفعني لأرسو عند الأوراس، بل إنه من فعل ذلك، ترى من يكون ذلك العجوز المتأنق ذو الشارب المهذب، و ما قصتي مع العجائز، هل كل من أقابلهم منهم له قصصه العجيبة، و ما قصة ذلك الرجل، أيكون له أطلال عشق يتباكى عليها هو الآخر..؟

بدأ كل شيء عندما تركني صديقي خلفه ألهث نشوتي، و تتقاذفني الخيالات و التوقعات المبتهجة، بت ليلتي بعده أرتقب مطلع شمس الغد، لأعود للعاصمة و أرتب أمور السفر، كان سفري سريعا، خاطفا، و غامضا، كأن يدا في الخفاء تدفع بي لأسابق الضوء خطوه، و أرمي بكل شيء خلفي، أو أرمي بنفسي أمام كل شيء و خلفه و أبتعد، المهم أن أبتعد، أن أسافر.

اشتريت حقيبة ظهر و ابتعت بعض الملابس، أخذت جواز سفري و ما أحتاجه من الأوراق، ملأت بطاقة الفيزا حتى آخرها و انطلقت للمطار، لم تكن لدي وجهة محددة، كنت مرتبكا أين أذهب، و كيف أبحث، لذلك ارتميت في أحضان حظي و انطلقت، كنت كمن يرمي النرد و يسير وفق أرقامه.

طلبت تذكرة للسفر، و عندما سألني الموظف إلى أين، أخبرته أن يعطيني تذكرة لأي طائرة، لا تهمني الوجهة، المهم أن أسافر الآن، و لا أنسى نظرة استغرابه، و اللحظات التي أمضاها دون فعل شيء كأنه يحدث فيها نفسه، ربما يسأل ضميره إن كان يجب أن يعطي تذكرة لشخص مريب مثلي أو يبلغ الشرطة، حين لاحظت تردده أردت أن أزيح عن نفسه بعض أثقال شكوكها، سألته بلغة مازحة:

- أليس هناك مقعد إلى أي مكان سياحي، أم أنكم لا تقطعون التذاكر هذه الفترة إلا للمهاجرين إلى أمريكا

ابتسمت كأني أأكد أنها طرفة، و إن كانت ثقيلة و أقرب إلى الاتهام، لكنه بدا لي قد فهم منها أني مجرد رجل ميسور يريد الترفيه عن نفسه، نظر إلى هيأتي و ارتاح، و ارتاح أكثر حين عرفته على نفسي و تأكد من هويتي، و هذا من إيجابيات الثراء، المال يعطينا المصداقية دون الحاجة للتمحيص، المال حصانة وتزكية.

ابتسم الموظف بطمأنينة و أخذ يبحث لي عن الأماكن الشاغرة، و كانت الطائرة الأقرب تستعد للإقلاع نحو الولايات المتحدة، و أظنها تابعة للخطوط الإسبانية، لم أتبين، و لم أهتم.

فهمت أن الرحلة تنتهي عند نيويورك، و قررت أن آخذها إلى نهايتها، ليس حبا في المكان، و لكني تذكرت وجود صديقي هناك، فبرقت في بالي فكرة، أردت أن أذهب إلى حيث صديق طفولتي، الصديق الذي طالما آمن بهذا الحلم، و الذي لابد سيدعمني في هذه الرحلة.

صديقي الذي اضطر ليهاجر كفاحا من أجل العيش، من أجل طموحات لم يتقبل التنازل عنها حتى و إن ألزمه النضال فيها مغادرة كل مناطق الراحة، و السفر وحيدا إلى بلد لا يعرف لغته، و لا يطيق العيش فيه، يكره تحرره و انفتاحيته على كل أشكال الفردية فيه، بلد يقدس الفرد للدرجة التي يحرم انتقاده على أي شيء، حتى و إن كان مخالفا للفطرة.

نزلت في نيويورك أخيرا، و لا أذكر كم مرة نزلت قبلها، أخذت أتجول في المطار بحقيبة على ظهري و نشوة في روحي من فكرة المفاجأة التي أعددتها لصديقي، فتحت الهاتف لأتصل به، فوجدت رسالة منه على الواتساب يخبرني فيها بالمفاجأة التي أعد لي، كان يريدني أن أنتظره في مطار أم التونسي.

لا أعرف كم ضحكت حينها، ضحكت حتى تشنجت عضلات وجهي، و بطني، ضحكت صدمتي الأولى..

و ذهبت أبحث لي عن فندق، و في خضم فوضاي و حيرتي، فقدت اتزاني و ارطمت برجل ثم كدنا نسقط معا، نظر كل منا للآخر و تأسف بحرارة، يبدو أنه مثلي كان غارقا في أفكاره.

كانت لهجته شامية، و كان مهذب الهيأة، سمح الوجه، و في عينيه زمجرة.. أعرف ذلك و لا أفهمه، شيء ما فيه يذكرني بي، كنا مختلفين تماما، هو رجل يخدم قضيته، و أنا رجل يبحث عن قضية.

تتدفق من نظراته جرأة مهيبة، أما أنا فلا أحتاج أن أتذكر، يحرجني أن أتذكر، أن أفكر في جبني، و لكن روحينا تلتقيان في زاوية ما، أفكارنا تتطابق، و رؤانا تتفق، هذا ما لمسته في عينيه التي تزمجر طموحا، و يبدو أنه قرأ أيضا في عيني ما يشبهه.

ربما لهذا دعاني لكوب قهوة، كنت لأرفض بلباقة في الظروف العادية، لكني شعرت حينها أني بحاجة لألبي دعوته، كنت متعبا، و لا نية لي في بدء رحلة الآن، أرغب في بعض الراحة.

و قد شجعني إصرار المرأة التي ترافقه، كانت تلح علي بلهجة عربية مكسرة، و صوت لا شك في جمال بحته، لها طلة إغراء شهية، و شكلها يصرخ بالرغبة، و في عينيها ما يثير الريبة، نظرتها تدعوني لأنفر، و لكني قبلت مضطرا لا بطلا.

فسرنا ثلاثتنا إلى أقرب مقهى، بدا لي أن الشاب مثلي، غريب تماما عن المكان، لذا كانت المرأة دليلتنا..

يلتقيان.. يشربان قهوة.. يفيضان بالأحلام.. يفيضان.. ذلك مربط الفرس.. يأنسان برحلتيهما.. باندفاعهما إلي.. الحالم بالحب.. الحالم بالحرية.. الحالمين بالمجد يفيضان.. أشعر.. أضيع في تلك الذبذبات.. ذبذبات.. ذبذبات.. ذبذبات.. أيها الحالم بالحب.. أيها القادم من مجهولك إلى معلومي.. أيها الخاطي خطو قدرك.. أنا قدرك.. أنا الأثيري.

ولّيت ظهري لذلك المقهى، و أنا مهزوز اليقين، شارد الثقة، متصاغر الذاتية، تلك المحاورة الصغيرة فندت لدي طائلية أحلامي، و جدوائية طموحي، آاااااه يا غادي كم أنا ضئييل أمامك، ما قيمة هذا القلب و أنا أصرف شعوره بأنانية خالصة! عرفت الآن أننا لن نلتقي أبدا، أنت نسر يحوم حول الموت ليستبقه إلى مصيره، أنت رجل يرتدي الموت ليعيش، تمنيت أن أثنيك عما تريد الإقدام عليه، أن أتبقى عليك لفترة، أن أتعلم منك أبسط ما يصح من الإقدام، و لكنها أنانيتي أيضا قبالة إيثارك، و دونيتي أمام شموخك، فكيف فتحت قلبك لي لتبث إلي كل ذلك، شيء ما دعانا نحن الاثنين لنرتاح لبعضنا، فأفضينا بكل مخبوء في قرارتنا، على تلك الطاولة بعثرنا كل الورق، و كأن كلا منا يأخذ استراحة محارب من أحلامه، و يضع عن كاهله أرطال الهموم.

غادي، الشاب الفلسطيني الذي نذر روحه للنضال، و أسس فرقته للتحليق في سماء القضية، و ليسقطوا معا سقوطا حرا، غادي الجرئ، الشجاع، نقيضي، تركته يحتسي قهوته الصباحية في المقهى، و انطلقت لإكمال رحلة فقدت شغفي بها، و لازال الحرج يروادني كلما تذكرت الفرق بين رحلتينا، بين قضيتينا.

لطالما سعى الانسان إما للحرية و إما للحب، و الانسان العظيم هو من يتخلى عن الحب في سبيل الحرية، إذ لا قيمة للأول إذا فقدت الثانية، بل إن الحب الذي لا يقودنا للتحرر إنما هو كذبة غريزية، فإلى أين ستقودني رحلة بحثي عن الحب؟..

هذا سؤال لم أتعثر بجواب له بعد، و لكني متأكد أنه لن يكون كما أردت، تلك المقابله أثرت بي بشكل ما، غيرت مسار تفكيري، و فتحت علي أبوابا مواربة، و دست بداخلي أسئلة لا حصر لها، أصبحت أتساءل عن أمور غريبة، رغم أنها كانت تشبه أي دردشة بين صديقين، و لكنها ملأتني بالشك، بدأ معي كشك في رحلتي، و لكنه سرعان ما تحول إلى شك أعمق، و الأغرب أن أسئلتي بدأت تتداخل مع أسئلة هيبا، ما هذا الجنون، يبدو أن ما أنا فيه هو لعنة تلك الرواية، لم يعد شيء إلى صوابه منذ قرأتها، و يبدو أنني لم أرتحل رغبة في السفر ، و لكن رغبة مني لإكمال رحلته هو، يبدو..يبدو.. ما هذا الجنون الذي أصابني..يبدو أنني أفقد عقلي..

ما هذا الطريق!.. بل ما هذا المكان، أين أنا..؟ و متى ركبت هذه السيارة..؟

أفقت في سيارة تسير في طريق فارغ من الحياة، نظرت إلى الرجل الوحيد الذي كان بجانبي، وعرفت أنه سائق الأجرة الذي تطوع أن يكون دليلي، نظر إلي بشيء من الشفقة و قليل من الضيق، حين سألته إلى أين نحن ذاهبين، و أجابني بلكنته المصرية:

- هي الحالة جاتك تاني، لا حول الله يا رب، ع الجيزة يا حبيبي، انت قلت انك عايز تشوف الأهرامات
- طيب

لم أرد أن ازعجه أكثر من ذلك، فقد تحملني كثيرا، و نقلني دائما إلى تلك الأماكن التي لا أذكر أني طلبت الذهاب إليها، بدأت معي هذه الحالة من مطار نيويورك، كنت منزعجا، و امْعبّي كما يقولون هنا في مصر، تعتريني مشاعر لا حصر لها، بين الغضب و نكران الذات، و الشعور بالدونية، و اللاجدوائية، و كنت أغضب من كل هذا التراكم فيتراكم الشعور أكثر، فيزداد حزني و يأسي.

و فجأة شعرت برغبة جارفة في الضحك، ضحكت حتى انتهكت كامل طاقتي، ضحكت صدمتي الثانية، و قبل أن يعاودني الترنح كما المرة السابقة سارعت بالجلوس على أول كرسي، سمعت رجلا بجانبي يقول لي: "تنفس" ، وجدتني أستجيب بكل طواعية، كأن كلامه هو خيط النجاة الذي أحتاحه الآن، و أخذت أشهق بهدوء، و أزفر، وبعد دقائق بدأت أشعر بلذة الراحة التي تغمرني، و شيئا فشيئا عدت إلى صحتي، و استقر تركيزي، حملت حقيبتي و هممت بالرحيل..
لحظة.. الرجل..لم أشكره بعد..
التفت نحوه، كان جالسا بطمأنينة، يبتسم بوقار، يستند على عصاه بأرستقراطيه.. صدمتني رؤيته.. كان هو.. أجل، لا يمكن أن يكون غيره.. انتظر!! أي هو هذا، لقد مات ذلك الرجل عجوزا موسوسا، لقد انتهى من قبل أن أولد، و هذا شاب فتي، و لكنه يشبهه، يشبهه إلى الحد الذي يخيفني، و يجعلني أرتبك و أنا أطالعه، كنت أرى بذلته السوداء و قميصه الأبيض، و شاربه الفتي، كأنه في الثلاثين من عمره لولا تلك التجاعيد تحت عينيه، و رأسه المشيب، إلا أن له حضور الستيني.

قال دون أن يلتف إلي، و قد كان يحدق في ما يشبه الفراغ، كأنه يقرأ طالعا:

- ربما

صعقتني الكلمة.

شعرت أنه يجيبني على أفكاري، خفت، ارتعشت قليلا، تمتمت على عجل "شكرا لك" ثم وليته ظهري و انطلقت، و بدأت الأفكار تجتاحني، كل الاحتمالات المنطقية و اللامنطقية، كل شيء يتدفق في عقلي، بدأت أفكر بجنون، بكل الشخصيات الغريبة، أحمد كوليبالي، هيبا.. لماذا هيبا، هذه الرواية لعنة، هكذا شعرت، ثم بدأت الشخصيات تتوافد، أصبح عقلي قاعة استقبال لكل شخص مريب أو خيالي، و أصبح كل شيء ملتبس، من ذلك الرجل، هل هو حقا نِ.... لا لا يمكن، و لكن لماذا لا يمكن.. ما الذي أفكر فيه، تدفقت في ذهني كل الأسئلة، كل الشكوك.. لم تكن هناك أجوبة.. فقط أسئلة.. أسئلة أسئلة أسئلة أسئلة أسئلة أسئلة أسئلة أسئلة..

ثم..

ثم ماذا؟..

أنا حقا لا أذكر.

أفقت في مطار القاهرة، لا أعرف كيف و متى، و لكني ارتحت حين سمعت لغة أستطيع أن أفهما، أناس أستطيع التفاهم معهم، و حاولت ألا أفكر في الأمور التي حدت بي إلى هنا، الشك يغمرني، و لكني، وربما بدافع الخوف لم أرد أن أبحث في حقيقة ما جرى، أردت أن أطمئن، أنا الآن في مصر، لطالما أردت أن أزور مصر، ربما هو القدر، ربما هذه نهاية رحلتي، ربما سأجد "التي" هنا، شعرت ببعض الراحة، لم يعد ينتابني ذلك الشعور بالدونية، أمكنني أن أحلم برضى كامل عن جدوائية حلمي، أجل، ها هي تعود إلي بحسها المرهف، بطلتها الآسرة، بدأت أتنفس السعادة، الرغبة، النشوة، يالنشوة! عدلت من حقيبتي و انطلقت، أوقفت سائق أجرة و بدأت التجوال في القاهرة، تعرفت إلى صاحب التكسي، اسمه صبري، عمره ٣٦ سنة، يعتمد على هذه المهنة ليؤمن حياة آمنة لأبويه، و تعليما جيدا لأخيه، و للمصادفة فهو أيضا أعزب، و له خياله الخصب فيما يتعلق بفتاة أحلامه، و قد حكى لي الكثير عن حياته الشخصية، فشعرت بمنته علي، فتحت له قلبي، و حكيت له عن ملامح من حياتي، ارتاح لي، و حين عرف أني أزور مصر لأول مرة، تطوع ليكون مرافقي، سيوفر علي التنقل بسهولة، و سيوفر على نفسه عناء البحث يوميا عن زبناء محتملين غير أكيدين، أعجبتني الفكرة، و لكني رفضت إصراره علي بالمكث معه، و أخبرته أني أفضل

أن أستأجر فندقا لأحصل على حريتي، فاختار لي فندقا جيدا و اتفقنا على أن يحضر كلما احتجته.

ذهبت لأرتاح في الفندق، و استيقظت في اليوم التالي و قد انسلخت من كل شكوكي، و غرابة الحادث الذي مر بي، استيقظت حالما، سعيدا، كان الجو غائما، و تفوح منه شهية المطر، شعرت برغبة في التمشي، خرجت من الفندق، و بعد خطوات بهيجة قابلتني مكتبة، أحسست أني بحاجة لأقرأ شيئا، أردت تجديد شعوري بعد ذلك الكتاب الذي لعنني بأفكاره، دخلت المكتبة، و بدأت أبحث بين الرفوف، كانت هناك عناوين لافتة، و أغلفة مغرية، كل الكتب كأنها تتسابق في غوايتي بها، لم أستطع تحديد كتاب، فمضيت أنتقل بنظري من غلاف لغلاف، و أفتح كتابا ثم أنتقل للآخر، تبدو كلها إصدارات جديدة، جميلة، ازدادت حيرتي، فربّت صوت على عقلي، حملتني تلك البحة إلى حيث السكينة، فغمرني الحنين فجأة، قالت بلهجتها المصرية المغمورة بلحن الفجر، و لا تسألوني عن لحن الفجر، فلا تفسير يمنطق شعوري، قالت: "لو محتار ممكن أخترلك"، استدرت، نظرت، رأيت، و انتهيت، هل كان ذلك هو الحب..؟ ربما! المهم أنها نفذت من عيني إلى قلبي، النبض وفير، لأول مرة أشعر أن قلبي يدق فعلا أكثر من ستين مرة في الدقيقة، و ربما مائة أو مائتين، لم يكن يتوقف عن النبض، كانت كالتجلي، كانبعاثة النور، لها شكل بلا وزن،

يمكنه النفاذ إلى الروح دون تكلف، كأنه تجسد أثيري، هل هي حقيقية فعلا!، و ياللمصادفة، كانت تحمل كتاب يوسف زيدان نفسه، لمحت الكتاب بطرف عيني و انفلتت الدهشة من فمي "هيباتيا".. سمعت العبارة و هي ترى بلاهة تعابيري، فضحكت، آاااااااه من الضحكة، أشرقت، شعرت بالصوت يغمرني من كل اتجاه، كان يأتيني على هيأة حضن، عانقتني ضحكة.. ياللحنو..

- يبدو أنك قرأت الرواية، و لكن لماذا تسميه هيباتيا، رغم أنها لم تأخذ مساحة كبيرة من قصته؟
- قصدتك أنت..
- أنا!!!

ربما شعرتْ ببعض الحرج، أو الاستغراب، لم أعرف، فأنا كنت محجوز التركيز على لهفتي بها، كُنتْ فاصل شحن.. لم أجب، ابتسمت بجلال و أردفت:

- حسنا، هل ستختار كتابا أم أختار لك..؟
- لا أعرف ماذا أختار، يمكنك أن تقترحي علي، سأكون مسرورا..

ابتسمت بمكر فاتن، و أخذت تمرر أصابعها على صف الروايات، تدندن مزحتها بظرافة لا يملها قلبي "حادي بادي كرونبا زبادي" و توقفت عند كتاب، أخرجته و قدمته لي.

تناولته بشغف و لم أنظر فيه، احتضنته و شكرتها بتلعثم مسرور، "*to welcom*"، قالتها و تخطتني إلى الرف الآخر تبحث عن كتاب، بقيت مسمرا للحظة، لم أشأ أن أذهب، و لكن لم يعد لدي ما أفعله، شعرت بتوتر، و ببعض الغضب، كنت أشتهي كالطفل المدلل، و أتمنى بعجز، اضطررت أن أذهب، حاسبت الرجل و خرجت منزعجا.

و عدت أدراجي، جلست في مقهى الفندق، و تفحصت الكتاب الذي ظل طوال الطريق في حضني دون أن أنتبه، "استار جيرل" لجيري سبينيلي، لقد قرأت الكتاب من قبل، كنت أحبه، و ربما كان من الكتب التي احتوتني سابقا، و عززت لدي جموح الحلم الذي تبناني منذ الطفولة، و لكنني لا أرغب في قراءته الآن، وضعت الكتاب جانبا و أنا أستذكر لمحات من أحداثه، استار جيرل.. فتاة النجوم، من أين جاءه هذا الاسم؟

أردت أن أتبصر ملامح من مضمون الكتاب، ولكني لم أرى غير وجهها، هيباتيا، فتاة المكتبة، انتظر، لقد كان لها وميض، كانت تشبه إلى حد كبير ألق النجوم، يليق بها الاسم حقا، هل كانت على شعور بالامر فاختارت الكتاب عمدا؟

لكن... هل يهم هذا حقا!..

ما يهمني أنها قد ولجت محظوري، و أخذت مساحتها من فكري، و إن لم أحذر سأجدني حتما ولها بها.. الوله! و ماذا يكون ما أنا فيه إن لم يكن ولها؟

جاءني صبري، فطلبت أن يأخذني في جولة حول القاهرة، و لكن السياحة لم تطل، فقد هطلت الأمطار، تحدثت السماء لغة رفضها، و حاكت الأقدار خطة أخرى، استأذنني صبري ليذهب في مشوار ثم يعود، و لم أكن لأمنعه، عدت إلى غرفتي، فتحت الهاتف، قمت بتشغيل أغنية ماجدة الرومي من اليوتيوب، و دخلت أستحم بينما كانت تشدو "عيناك ليال صيفية"، هذه عادتي الغريبة منذ الطفولة، أشعر أن الموسيقى و الماء يغسلاني من أعباء الهموم، تطهرت من آثار خيبتي و خرجت بذهنية متفائلة، و جرفتني مشاعري نحو المطر، شعرت كأنه يناديني، و خرجت، خرجت لا أعرف لأين، و لا لماذا، لم أفكر حينها إلا في حاجتي للتجول تحت المياه المباركة، سأتمشى تحت دموع المطر، هذا ما خطر لي.

ماذا يجري هنا؟ لماذا هي هناك.. و الآن؟ و لماذا هم.. من هم؟ و ما بال ساقاي ترتجفان؟ كيف آل الحال إلى هذا الجنون!!!!
كان يوما جميلا، يتغناني فيه الحب على لحن المطر، كل ما أردته أن أنتشي بأحلامي، أن تبللني بركات السماء، فما بالي أصطدم بها هي هناك، أطلت كشمس فأفسدت روح الانتعاش في الجو، و لكنها كادت تدفئ القلب عشقا، لولا هذا الموقف السخيف.
لماذا يهاجمها هؤلاء البلطجية؟ أشباه الوحوش، تتناهى إلي أصواتهم البالية:

- طلعي اللي امعاك
- ما امعييش حاجه
- احن هنهزر.. بقلك إيه يا مدمازيل، شكلك بنت ناس و مش لايقه عليك المرمطه.. طلعي الي معاك و إلاّ..

و إلا ماذا أيها النذل، ما هذا التوعد، و ما بالي كالمشلول، بح صوتي.. تصلبت قداماي.. جسدي تخدر، كأنه منحوتة جوفاء..
مابالك أيها الجسم الخائن، أهذا وقت الخذلان، كم أكره هذا الخنوع، هذا الجبن اللصيق، كم أكرهني، تحركي أيتها الأقدام، أي حركة، لا أطيق سماعها تترجى.

- بقولك ما معييش حاجه.. أرجوك.. أحلفلك بإيه
- ماشي.. يلا يا حمادة، مش انت كنت عايز..

لا..لا.. لا لا لا لا لا لا لا لا لا لا لا.. أيتها الكلاب الضالة، أليس هناك أحد، لماذا لماذا لماذا لماذا لماذا أنا بهذا الجبن، تحركي أيتها الأقدام.

من أي جنس ولدت لأكون هكذا، كم أكرهك أيها القلب الخائن، بأي نبض ستعيش بعد هذا الخزي. أكرهني.. أليس في المكان أحد، أي إنسان.. أنا محض خردة..
لقد رأتني.. ياللعار!! لا عزاء للرجولة من بعد.. أليس للموت أن يبتلعني، لا أحتمل نظراتها الراجية، ماذا يفعلون بها.. ماذا ينوون..
هيباتيا.. هيباتيا.. أشعر بها تناديني، بعينيها، بقلبها الطاهر، هيبا.. أم لعلها تقول أخي..
أنا عاجز، أنا جبان.. أنا.. أنا.. أنا أتلاشى، لم أعد أشعر بشيء، بل أشعر، أشعر أن كياني يختفي، النور، لقد اختفى النور، أنا في ظلام.. ظلام دامس.
أسمع صوت أحد قادم.. هل رأوني.. هل هم قادمون نحوي.. جيد، فاليقتلني أحد..
لا.. يبدو الصوت كأنه صادر مني.. هذه أقدامي.. هل أهرب.. ياللجبن.. ياللخزي.. أتخايل صوت صبري، هل جاء أخيرا.. هل.. أنا.....

- ما الذي فعلته..؟

قالها صبري بلحن استغراب متوتر، خفضت رأسي، و خجل العالم يعترينني في تلك اللحظة، و تمتمت بخزي لا ذريعة له:

- آسف يا صبري، أنا لا أعرف حقا ما حصل لي، لقد غبت عن الوعي
- غبت عن الوعي و أنت تتحرك و تتحدث، با بني قول حاجه تدخل العقل

بقيت صامتا، أتجرع ريقي بمرارة و ذل، إذا بلغ بالرجل أن يختار حياته على شرف مرأة، فليس له بعد أن يبقى رجلا، لأن الرجولة تقاس بالمروءة، الرجل الجبان ليس الذي يخاف، و لكنه الذي يخاف حتى تموت كرامته، و أنا مت كلي، لم يعد بداخلي ما يسمح لي أن أطلب العيش.

سألت صبري و الغصة بالكاد تسمح لي بالكلام:

- كيف حال هيباتيا..
- هيباتيا مين يابني الي انت داير عليها من الصبح.. اسمها "هبة"، و بعدين انت أدرى، مش انت وصلتها للبيت.
- بيت إيه.. و إمت ده؟
- الله.! مالك، انت فصلت ولا إيه.. بس سيبك، قولي انت عملت كده ازاي.. تضرب خمس رجاله بالسرعه دي ازاي.. ده انت حتا مش باين عليك

أيهزأ مني صبري!.. هذا ما دار بعقلي حين سمعت كلامه الغريب، و لكن ما الذي فعلته أثناء غيابي عن الوعي؟.. و ما هذه الحالة التي تأتيني كلما توترت بشدة؟، و كيف قطعت تذكرة من نيويورك إلى مصر؟.. و متى؟

بدأت الأسئلة تجتاحني، بدأت في الانغماس في أفكاري حتى أخرجني صبري منها بأسئلته و اندهاشاته، اضطررت لإخبار صبري عن حالات انقطاعي الغريبة، و الذي حللها كانفصام، و ما استغربته هو طريقته في تفسير حالتي، و هذا الاستغراب قادني لأكتشف أن صبري رجل شديد الثقافة، و أنه خريج كلية تجارة، و أنه تخصص في إدارة الأعمال، و تخرج أيضا من عدة دورات في الإدارة و التسيير، و له باعه الواسع في الآداب و علوم النفس.

استغربت كيف لشخص بمثل ثقافته و اطلاعه الواسع أن يكون سائق تكسي، و كيف لم يبد عليه هذا قبل الآن، كأنه اندمج مع وظيفته حتى نسي أو تناسى خلفيته المتعلمة، فلم يعد يخرجها إلا أوقات الضرورة. و لكن ما فاجأني حقا هو ما قاله عن هبة..

- يلا انروح لصاحبتك.. مش هي دكتورة نفسية
- بجد.. و انت مين قالك
- يابني مش هي اديتك كرتها، و قالتلك تزورها فأي وقت.. آاااه نسيت.. انت كنت فاصل
- طب اكويس انك افتكرت

إنه القدر.. أجل، لا شيء بهذه الدقة يمكن أن يسمى صدفة، اليوم شعرت أن حياتي بدأت تأخذ مجراها الأمثل، و شعرت بالامتنان أن صبري كان هناك، حيث كنت و لم أكن، و يومها، بعد أن تفقدت جيبي و وجدت كرت هبة، بدأت رحلتي و أحلامي و قلبي يأخذون مستقرهم، اتصلنا بهبة، و ذهبنا لزيارتها، و لست أنسى تلك الزيارة..

قبيل الغروب، و على اللحن الذهبي للحياة، عزف الحب فتونه، و تغنت كوامني بنبرة الوجد المسحور، و غنيت حياتي في جلسة، و كانت "التي" تسمع، و تسمع، و تضحك و تسمع، و تبكي قليلا و تسمع، و كنت أحكي و أحكي و أحكي، و لا أمل الحكاية..

نظرت هبه بعينها الفاترة، و قالت بصوتها المبحوح:

- أنت كالحلم، حكاية روائية، من أنت..؟

فاستيقظ المارد المكبوت، و صرخ جموح عشقه من عيني، بينما ألجم الحب لساني، و ابتلعت سعادتي كلماتي، و لم تعد تلك جلسة نفسية، بل أصبحت حوار عيون عاشقة..

ماذا أحببت في هبة؟ لا يمكنني الإجابة على هذا السؤال، و لهذا يمكنني أن أقول إن الذي أصابني هو عشق، فلا تبرير للحب الحقيقي، لأنه خلو من كل دليل على وجوده، و لا غاية منه، فهو غاية في ذاته.

و لكن هل أحبتني هبة؟ لم أتوقف لأتحقق من ذلك، فبدا لي أن كل شيء يؤكد لي شيئا لم أفكر في إمكانيته من عدمها، و طالني التعلق، يوما بعد يوم، زيارة بعد أخرى، و توقفت الزيارات الطبية لتتحول إلى عزومات و جولات سياحية..
حسنا، كان هناك عنصر ثالث يمنعها أن تكون مواعيد، أجل، صبري..
كان صبري هو دليلنا السياحي، ذهبنا إلى أماكن كثيرة، و كنت أستفيق في خضم رحلة لأتفاجأ به يخبرني أني طلبتها منه، توطدت علاقتي بهبة وصبري، و فجأة تغلغلت في مصر، و أصبح لي صديق و...، أو ربما لا.

تعرفت على أهل صبري، ذكرني أخوه بأخي الصغير، و أثرت بي علاقتهما، و علاقة العائلة ببعضها، فحدثت نفسي بخاطر، و نويت على نية، و أثناء ما كنت أنوي، وجدت نفسي هنا، بجانب صبري ذاهبين للجيزة.
لماذا يا ترى أردت زيارة الأهرامات..؟
توقف صديقي عند هرم خفرع، الهرم الأوسط، و تركني وحيدا بعد أن أخبرني أني طلبت ذلك، و أنه سيعود بعد نصف ساعة.

انتظرت دقائق في قلق، أخذت أتمشى في المكان علني أجد ما كنت أريده و أجهل أني أريده، أو لعل نصف الساعة ينتهي و يعود صبري.

و بعد قليل نادى علي الصوت.
التفت.
إنه هو، ذلك الرجل المريب.
أخذتني رعشة، تأتأت:

- م_ن أ_ن_ت؟
- خمِّن
- هل يعقل أنك هو، أنت ن..ني
-

رفع يديه عاليا وصرخ في ثقة مغرورة:

- أجل.. أنا نيكولا تيسلا.. أنا من رأيت الماضي و الحاضر و المستقبل..

انکشاف..

وجها لوجه، نحاول استكناه بعضنا بالتحديق، و يبدو كأني أحدق في فضاء لا منتهى له، عينيه توحي بالتباس الحقائق، كأنهما مكمن أسرار كوني، توحيان لي أن الذي أمامي هو شخص بلا نهاية، و ما ينتظرني معه هو الضياع الأزلي، ولكني كنت موقنا أن شيئاما يربطنا، و لن أستطيع الفرار أكثر، لابد من المواجهة، لا بد أن أفهم ما يجري..

- فيم أنت شارد، ألا تصدق أني نيكولا
- عن أي نيكولا تتحدث يا جدي، من أنت، أو بالأحرى ما أنت، و ما سر تقمصك لشكل هذا العجوز، للأموات حرمة كما تعلم، أو كما ينبغي أن تعلم
- أصبحت جريئا يا صغيري، اختفت لهجتك اللبقة، أين ذهب خوفك اللصيق

الجد محق، أشعر بشيء تغير في شخصيتي منذ تلك الحادثة الغريبة، في الواقع ليس تغييرا سيئا، و لكنه كان مفاجئا، أصبحت أكثر صلابة، و أشد جرأة، ماذا حدث؟

- أنا سأخبرك بما حدث
- هل تتلصص على أفكاري أيها الجد

ضحك، كان صوته دويا مهيبا، يأتي من كل اتجاه، شعرت بوقاره يتغشاني، من هو؟

- هيبا، نيكولا، أنت..
- عزازيل..
- نسبيا أيها الصغير، أنا عزازيل هيبا
- أنت جنّ إذن
- هذا جزء من الحقيقة، أنا جني و لكن ليس بمفهومكم السائد عن الجن..
- لا أرى شيئا غير سائد، توسوس في العقول، و تتقمص البشر، أنت محض مارد..
- أنت تؤمن بالتقمص إذن، هل هذا قد يعني أنك لست أنت، كل ما تعيشه هو حياة شخص آخر، هل يمكن أن يكون هذا معقولا برأيك..
- ما هذا الهراء أيها الجد.. هذه حياتي، و الدخيل الوحيد فيها هو أنت.. و لا منطق يقبل فكرة التقمص، الروح لا تعود بعد أن تذهب..

لا أعرف لماذا خفت من كلامه..
لم يتوقف هذا الكائن هنا، كأنه مصر على إدخالي في لحظة جنونه، جنوني.. لم أعد أعرف، قال بنبرة جادة:

- للتقمص حقيقة غير التي تقصدها..
- يكفي، أنا لا أهتم بهذا الهراء، هذه حياتي و هذا ما يهمني
- حقا، حياتك، و من أنت
- أنا
- أجل أنت، ما اسمك؟
- اسمي هو.. اسمي.. اسمي..
- ماذا فعلت بعقلي أيها المارد..
- لم أفعل شيئا، أنا أحاول أن أريك الحقيقة
- تقصد تحاول إلباس الحقيقة علي
- تيمقاد..
- ماذا؟!!
- اذهب إلى تيمقاد، في تلك المدينة ستكتشف الحقائق، و تنتهي رحلتك، أو بالإحرى تبدأ رحلتك الجديدة
- لقد انتهت رحلتي هنا، وجدت غايتي و أعرف كيف سأبدأ رحلتي الثانية، فإليك عني أنت و حقائقك الملتبسة

في تلك اللحظة سمعت صوت سيارة، جاء صبري أخيرا، هرولت إليه ، و التفت إلى ذلك الشيء فوجدته اختفى.

عدت إلى السيارة و انطلقت مع صبري إلى القاهرة.
في الطريق كان صبري يتردد في إخباري عن أمر يشغله، كان توتره واضحا، كلامه متقطع، تلميحاته كثيرة، أنبأني إحساسي أنه يلمح إلى هبة، كأنه يريد أن يخبرني عن شيء يخصها، كان...
أفقت في المطار، و بيدي تذكرة إلى الجزائر، و لازلت لم أعرف ماذا أراد صبري أن يخبرني.
عرفت فقط و أنا في الطائرة قبيل الإقلاع، حين بشرني في رسالة على الواتساب أنها وافقت، و أنهما سيعلنان الخطبة قريبا، و شكرني كثيرا على دعمي له، و على الشراكة التي اقترحتها عليه.
حسنا أليس هذا ما كنت نويته قبل ذهابي للأهرامات، نويت أن أفتتح معه مشروعا في مصر، و لكن المفارقة أني أردت أن أعمل معه، و أبقى بجوار هبة، هبة التي لم تكن لي، لم تكن هي "التي" كما ظننت.
أذكر كيف اختلطت كل مشاعري دفعة واحدة، اليأس، الغضب، الحزن، العجز، أردت أن أبكي، أحسست برغبة جارفة أن أفرغ مابي، أن أرد على صدمتي بدموعي، و لكني و لسبب أجهله ضحكت، ضحكت بهستيرية مخيفة و أنا على مقعد الطائرة، كان منظري غريبا و محيرا، عرفت ذلك من نظرات الركاب.

أذكر الآن أني لم أبك في حياتي، حتى في طفولتي، كنت دائما أضحك حين أحزن، أو أغضب، و لا أعرف لماذا ظننت أن هذه طبيعة البشر، كنت أستغرب حين يبكي أخي أو أحد الأطفال، كنت أظنهم غير طبيعيين، و عندما كبرت قليلا و فهمت من أمي أن البكاء طبيعي، و أننا نعبر به عند الألم أو العجز أو الحزن، و أحيانا عند الفرح، سألتها لماذا لا يمكنني البكاء، قالت إنها لا تعرف، و لكني حالة استثنائية، ربما أنا معجزة، و أخبرتني أني حين ولدت لم أبك كباقي الأطفال، بل ضحكت كثيرا، كان الأمر غريبا، و لكنه لم يحجز لدي اهتماما كبيرا، ربما لأني لم أشعر يوما برغبتي في البكاء.

الآن فقط أشعر بحاجتي إليه، و لا أستطيع أن أبكي.

الآن أشعر حقا أني لست كباقي البشر، أشعر أني أريد معرفة حقيقتي، من أكون، و لما يحدث هذا معي..؟

آاااااخ يا قلبي.. أشعر اليوم أني مرتاح من كل ثقل، خفيف كنسيم الصبا، حر كطير بلا قفص، سعيد كخرافات الطفولة، و الفضل في هذا لعرابتي، هكذا أحب أن أسميها، كان مجيئي للجزائر موفقا، أعرف دنيا على منصة تويتر، تجمعنا صداقة متينة، برغم أننا لم نلتقي من قبل، حين أخبرتها أني قادم إلى مدينتها أصرت على استقبالي، و ضيفتني في بيتها.
عرابتي أربعينية، لها طلة الغيم، كأنها مغزولة من غمامة مطر، توحي إليك رؤيتها بالسكينة، و تسحبك ابتسامتها للإجلال، ملكة أمازيغية جينها عربي، و زوجها الخمسيني هو رجل في غاية لطفه، و لها بنتان صغيرتان، كلؤلؤتي بحر، و أضافتني لعائلتها كأخ أصغر.

مضى أسبوع علي في هذه الحياة البسيطة، تجولت في عدة أماكن، و اكتشفت أعاجيب الأوراس، و لكني إلى الآن لم أقصد تيمقاد.
هل أخاف تلك المدينة، أم أخشى من مصيري الذي يبدو لي متعلقا بها.
لازلت لا أذكر اسمي، الغريب أن دنيا لم تناديني به، كنت أتوق أن تناديني به مرة، أردت أن أتأكد أني موجود، أني حقيقة. ذلك الشيء هز يقيني في كياني.

ماذا يقصد بأن للتقمص حقيقة لا أعرفها، لا أستطيع البقاء على هذه الحال طويلا، كنت أظن أنني سأفقد وعيي كالمعتاد لأجدني في تيمقاد حيث قال لي، و لكن لابد أني مخطئ.
سأحاول اليوم أن أذهب، سأنهي الأمر و أرتاح، سأتجاوز هذا القلق كما تجاوزت الخوف.
هل تجاوزت مخاوفي حقا؟
إن أكثر ما يخيف الإنسان هو ما يجهله، ربما لهذا نخاف الموت، هل يا ترى لو كنا نعرف حقيقة الموت كنا سنخافه كما نفعل؟ و هل أخاف أنا أن أموت في تيمقاد، أم أخاف ألا أجد ما أبحث عنه؟

عماذا أبحث حقا، عن الحب، أم عن ذاتي، أم عن الحقائق التي وعدني بها ذلك الكهل المريب؟
لا جواب عندي لأي من هذه الأسئلة، و إن كان يوجد واحد فربما في تيمقاد.
سألت دنيا عن أهم معالمها المعروفة، فأخبرتني أنها السوق، و المعبد الكبير، و المسرح الروماني الضخم، يستوعب هذا المسرح ٣٥٠٠ نسمة، يبدو جيدا لي، فأنا أحب المسارح جدا، و أشعر بالفضول يشدني إلى ذلك المكان.
حزمت أمري و نويت الذهاب ليلا، كنا في باتنة و تبعد وجهتي ٣٥كلم، أخبرت دنيا أني أحتاج استئجار سيارة، أحضرت لي واحدة، حددت الموقع على الGPS و انطلقت بعد العصر.

وصلت أخيرا.. منذ ولجت المدينة و شيء ما يشدني لهذا المسرح العتيق، كان شعوري يحتد كلما اقتربت، و الآن و أنا على أبوابه تختلجني كل مشاعر البشرية دفعة، كأني أشعر بكل شيء، أحس بالعالم كله، بدا الأمر لي غريبا، كيف فهمت ما أشعر به، و لماذا هذا الاحتدام في الأحاسيس، غير أن شعورين قد أغرقاني في عرقي، الحب الجارف، و الخوف المريع، كل أحاسيسي تنطلق منهما، كل شيء يتمحور حولهما.

دلفت بسرعة داخل المسرح، أردت الانتهاء من كل شيء قبل أن تنهيني نبضاتي المتسارعة، و في الداخل لمحت الفراغ، لأول مرة أشعر أن للفراغ كيان، كان الجو خلوا من الحياة البشرية، لا وجود لأنفاس الإنس، شعرت بالذبذبات القوية في المكان، لا أفهم معنى ذلك و لكني شعرت به.

توجهت لمدرجات الجمهور، شعور ما دعاني لأجلس هناك و أنتظر أن يحدث عرض ما، تذكرت، في مسرح كهذا التقى هيبا بهيباتيا، لا أعرف على ماذا يدل هذا و لكن كل شيء يبدو غريبا.

كانت الشمس تغطس في الظلام، و لايزال منها بصيص في الأفق، و بدأت غرائب الليل تتجلى، من العدم ظهر طيف في منتصف المسرح، بدأ يتضح شيئا فشيئا، إنه هو، نيكولا، أو الشيء الذي ينتحله.
شعرت بالذبذبات تشتد، لا أعرف كيف أدرك أن هذا شعوري بها، لكني كنت على يقين بلا مبرر، و أخذت تشتد في المكان، أشعر بها.. لا بل أراها.
أنا أرى الذبذبات، نظري يحتد، يقوى، أصبحت أرى تفاصيل الهواء، أرى تشكيلة الأثير، أشعر أنه يمكنني ملامسته، و فجأة.. فجأة خفت كل شيء، و لايزال ذلك العجوز واقفا.
خفت، خفت كما لم أخف من قبل، و أخذ خوفي يشتد و يشتد و يشتد و يشتد، و يشتد و في لحظة ما شعرت أني تغلغلت في الكون، لمست المستحيل، و رأيت التي.
هل كانت هي حقا؟

رأيت فتاة تسبح في بياض عارم، كانت تغط في نوم عميق، و لكني شعرت بها تفكر، كيف ذلك؟
أنا في حالة لا أفهم فيها شيئا، و لكني أشعر بكل شيء، شعرت بحاجتها لتعبر مني إليها، الأمر أغرب من أن أفهمه، كأنها داخلي، أفكارها داخلي، لا، إنه وعيها.

مددت إليها يدي، أردت أن ألمسها، أن أتصل بها، أن أعيد لها حياتها، وعيها، و قبل أن ألمسها انتهى كل شيء.
وجدتني في المسرح، في منتصفه، و ذلك العجوز ينظر إلي بأمل شديد، تنهد بما يشبه الخيبة، و ابتسم قليلا و قال بأمل مواسي:

- ربما تحتاج دفعة لتصل!

لم أجبه بتعجرف هذه المرة، شعرت ببعض منه، بشيء من الطيبة، و بحاجتي لتلك الدفعة التي تحدث عنها، و بفضولي لمعرفة ما كنت قيد تجربته، و لم أعد أشعر بالشك، أحسست ببعض اليقين، و قلت له بابتسامة رضى:

- ربما
- إذا دعني أخبرك بالحقيقة التي تهفو إليها، بحقيقة ما شاهدته قبل قليل..

ركنت إليه بكلي مصغيا إليه و هو يتحدث:

- أنصت يا فتى؛ الذبذبات هي المفتاح، هي صلتك بالوجود، صلتك بالأثير، الأثير الذي شاهدت تركيبته قبل قليل..

- و من الفتاة؟
- لا تقلق، ستعرف في الوقت المناسب، الحقائق تترتب، و لكن الأكيد أنها من أسباب وجودك هنا..
- من أسباب..!!
- أجل، فهناك أسباب أخرى، أولا دعني أسألك، ماذا تعرف عن حقيقة الوجود الذي تعيشه؟

كان يتحدث و يداه فوق العصا المنتصبة أمامه، و لم أتبين مغزاه من سؤاله عن الوجود، و لكني خمنت أنه يقصد أصل الوجود، فأجبت في تردد:

- جاء من عدم
- أجل، و لكني قصدت تركيبة الوجود الكائن، كل الحقائق تبدأ من هذه المعلومه، من تركيبة العالم..

تنهد ثم واصل شرحه:

- هذا العالم يا صغيري مكون من عنصرين؛ الأثير، و الذرة.. الذرة هي ما يشكل كل كتلة في هذا الوجود..

بدأ يخط في الأرض أثناء شرحه.

- أما الأثير فهو الخفي الذي يشكل ما تبقى، كل الإشارات في الوجود هي جزء من تركيبة الأثير، كل جسم في العالم يحتمل تشكيلة من هذين العنصرين، وجود كتلي، و وجود أثيري، بالنسبة للبشر مثلا، فوجودك الجسمي هو تشكيلة الذرْ، و عقلك و أفكارك، و بمعنى أدق وعيك هو تكوينك الأثيري.. بمعنى أنك تنتمي للعالم من عنصريه، و إن كان وعيك بالكتلة أقوى، و لكن بإمكانك الولوج للعنصر الخفي، و ذلك فقط إذا بلغت ذبذباتك حدها الأقصى من التوتر.. هل فهمت شيئا؟

كان كلاما غريبا، لا يمكنني أن قول أني لم أفهمه، و لا يمكنني إنكار اندهاشي منه، و مع ذلك فإني أشعر به، و لاسيما بعد ما حصل قبل قليل، لقد لمست الوجود الخفي، و أخذ العجوز يكمل تفاصيل شرحه، و بدأ بتشريح الإشارة، و الإشارة هي العنصر الدقيق الذي يشكل الأثير، فأخبرني أنها تنقسم لثلاث عناصر رئيسية،

(- الوعي.. - الذاكرة.. - المسار)

و قال إن "الوعي" ينقسم لقسمين،

(- المنطق، و - الاستفاضة)

و هي ما نسميه نحن خيالا، و هي التفاعل الأقصى مع الأثير، و الوصول إليها يعني بلوغ التماهي مع كينونة الوجود الخفي.

رسم مثلثا مقلوبا، في زاويته السفلية خط خطا مستقيما، و قرنه بالزاويتين الباقيتين بخطين آخرين، كانت تلك تشكيلة الإشارة، و الإشارة هي تركيبة الأثير، و الخط المستقيم هو المنفذ، ينطلق من زاوية الوعي، و يصل للإستفاضة ليتصل بالذاكرة و المسار.
سألته:

- ما معنى الذاكرة، و ما معنى المسار؟
- الذاكرة في الإشارة هي ذاكرة الوجود، حين تبلغ بوعيك الاستفاضة، و تتصل بالذاكرة فإنك تصل لإدراك المخزون الكوني عن الماضي كله.. أما المسار فهو نقطة التوقع، تصل إليه أيضا عند بلوغ الإستفاضة، و هو يعبر عن المسقبل، بالطبع ليس أمر يمكن إداركه، لأنه ينطلق من الاحتمالات اللانهائية، و لكن التخمين فيه مرهون بمستوى التناغم في الاستفاضة..
- التناغم!!
- أجل، التناغم هو حالة انتقال وعيك من المنطق إلى الخيال دون التخلي عن خصائصه، هكذا يمكن للاستفاضة أن تكون متناغمة إلى درجة تحليل الاحتمالات القائمة كلها و تخمين الأمثل..

تنحنح العجوز قليلا قبل أن كمل كلامه، أخذت لحظة صمت، كأنه كان يستريح من طول خطبته، أو كان يعطيني فرصة لأهضم كل هذا الكم من الصدمات، نظر إلي، كنت مصغيا باهتمام بالغ، ابتسم، ثم أكمل:

- أما عن الذرّة، فلديها وعيها الخاص، و هذا الوعي هو ما يشكل الكتلة، فوعيك بجسمك هو ما يشكله هكذا، و وعيها بوظيفته هو ما يجعله يعمل حسب نظامه، بمعنى أدق، الذرة هي نواة تتشكل و تتجدد و تحيا و تموت حسب الوعي، و بتحكمك في وعي الذرة يمكنك التحكم فيها كليا، و هكذا يمكنك تفكيك الذرات عن بعضها و إصهارها في العدم، و تشكيلها من جديد، بمعنى آخر، يمكنك الانتقال آنيا
- الانتقال الآني!، التحكم في الذرة!.. ما هذا الجنون؟
- لكن تذكر، التحكم يكون بالوعي، و يكون عن طريق التحفيز، و هذا يحتاج لأداة خارجية.

قال جملته و هو يرفع عصاه، لم أنتبه من قبل لهذه العصا، تبدو كصولجان، لونها ذهبي، و لها بريق من النوع الجذاب، سألته:

- هل لهذه العصا علاقة بما تقول؟

- بالتأكيد يا صغيري، هذه العصا هي ثورة علمية، هي فخر اختراعات نيكولا.. سره الأكثر تعقيدا، هذه العصا هي محفز يضاهي حجر التكوين
- حجر التكوين؟
- أجل، نسيت، تلك قصة لم أخبرك بها، سر الأرض السابعة
- الأرض السابعة!
- كنت مندهشا من كل شيء يقوله، لا ينفك يفاجئني بجنون جديد.
- سأخبر بذلك في أوانه، و لكن قل لي، هل تذكرت اسمك
- اسمي.. لقد نسيت أمره، كيف يمكنني.. من أنا.. هل..
- لا يا صغيري، لا أحد يتقمصك، أنت غادي
- من!. انتظر، غادي.. أجل، من أين؟.. كيف؟، عندما التقيته..

- هون عليك أيها الفتى، كنتما تتشابهان في أشياء كثيرة، حتى في الاسم و المولد
- ما هذا الجنون.. لا تخبرني أن أمرا كهذا يحدث مصادفة، ماذا يربطنا ببعضنا.. و لماذا غاب عني اسمي بعد أن التقيته، تلك المقابلة، كل هذا الجنون قد بدأ بعد أن قابلته.. من غادي ذاك؟ من أنا؟
- مجرد شخصين من بقعتين مختلفين من الأرض، ولدا بنفس اليوم، و لكن معك حق في شيء واحد، أنتما مرتبطين بشكل ما
- ماذا تقصد..
- الذبذبات.. في هذا العالم الذي نعيش فيه يولد البشر بذبذبات متفاوتة، كل شخص لديه ذبذبات توازي أفكاره، و أصحاب الأحلام المتقدة هم ذووا العقول الأكثر تصديرا للذبذبات، و كلما كانت ذبذباتهم قوية كانوا أقرب للتفاعل مع الأثير، و أنت و غادي الآخر هم أكثر اثنين ولدا بذبذبات في ذلك اليوم، بل و في العقود المتوالية كلها، كان علي أن أختار واحدا منكما، واحد فقط سيصل إلى الذروة، سيلج المخفي و يستلم الدليل
- الدليل!
- أجل
- و لماذا اخترتني أنا؟

- لم أخترك، كان للقدر كلمته الفاصلة، و سبقتني إليك الأحداث، قبل مولدك بسنوات كانت تدور معركة شرسة بين فرقة الوميض و الجني الحارس، أحست حارسة الأبدية بالخطر عندما فعل الجني قدرته الخاصة، فأحكمت إغلاق بعد الأبدية، ثم فعلت قدرة التفريغ، و هي قدرة تشبه ما تسمونه الإسقاط النجمي، حررت وعيها و أرسلته في هذه الأرض ليطفو عدة سنين بلا مسقر، و بقي جسمها يطفو في البياض، في الركن الثابت من الكون، و الوعي هو إشارات تنجذب للإشارت، و في وقت مولدك كانت إشاراتك في توتر عنيف، و رغم أن غادي ولد قبلك بقليل، و ذبذباته تضاهي ذبذباتك، لكنك كنت الأقرب فانجذب إليك وعيها، و توارى في أعماقك، في تلك اللحظة اضطربت ترددااتك، و في الوقت الذي ينبغي أن تبكي فيه كمولود، ضحكت فيه بهستيرية، و هكذا بدأت رحلتك نحوي، كان حتما أن نلتقي..
- إذن سبب اختياري هو أن الفتاة التي تتحدث عنها ترقد داخلي
- في الحقيقة ليس هذا السبب الوحيد، كان يمكن لغادي أن يصبح المنشود، و لكنه يفتقر للخوف

هذا أمر لم أشك فيه للحظة، فغادي الذي قابلته لا يعرف قلبه كيف ينبض خوفا، لذلك كنت مستسلما للعجوز و هو يخبرني عنه:

- غادي تربى في ظل الرصاص و الحديد، يمكنه أن يتفاعل مع الأثير، لأنه يملك قلبا عاشقا رغم قساوة أحداث حياته، لكنه لن يبلغ الصحوة، و تلك درجة من التماهي تسمح بتجاوز حركية التوقيت، و تأذن بولوج الركن الثابت.. و لبلوغها لابد من أن يكون الحب و الخوف معا في تركيبة إشارات الذبذبة.. لعلك فهمت قصدي؟
- لا يمكنني أن أجزم أني فهت، لكني بلا شك أشعر، هذه الأشياء أغرب من أن أستوعبها بالمنطق، و لكن لا أعرف لماذا أستوعبها بشعوري!
- بالطبع، هذا ما يسمى بالعلم اللدني، و هو العلم الذي لا يمكن إدراكه بالمنطق، و لكنه يدرك بالتسليم، علم لا يمكن اكتسابه، و ليس متاحا للجميع..
- العلم اللدني!
- أجل، علم الخفي، ستدرك كل شيئا في وقته، لكن الآن ينبغي أن تستكمل أسئلتك، أن تنتهي من كل ما يثقلك بالحيرة

- إذا أخبرني، لماذا سموني "غادي" رغم أن الاسم غريب على البلاد التي ولدت فيها؟، غادي اسم شامي، فلسطيني، و أنا ولدت بانواكشوط، فكيف سموني به؟
- معك حق، كان ذلك بسببي، أردت أن يصبح كل شيء متناغم حين تلتقيان، أن أستفز عقلك بأكبر قدر من الصدمات، و أن أدفعك لتوترك الأقصى حتى تستطيع المضي قدما، كان لابد أن أدخل عقلك، و لن يحصل ذلك إلا إذا ارتفع مستوى ذبذباتك إلى أقاصيه، و هكذا ألج أفكارك، و أقودك إلى رحلتك، لذلك استخدمت تقنية الإلهام، وزرعت الاسم كفكرة عند والدك
- الالهام؟
- أجل، تقنية زرع اليقين، تقوم بتوليد فكرة داخل عقل معين و توهمه أنها فكرته، تتلاعب بمنطقه ليصدق الفكرة، ثم ليعتنقها بيقين..
- مرعب..
- أجل، و نتيجة لخطورتها فهي من التقنيات المحرمة، و لكن خطورتها تكمن في نوع الفكرة، لذلك لم يكن هناك ضير لأستخدمها
- أخبرني أيها العجوز.. من أنت، أو ما أنت؟
- (ضحكة مجلجلة!) أخيرا سألت، حسنا، وراء سؤالك قصة صغيرة يا صديقي الصغير.. و قد حان الوقت لتعرفها

في ظل العصور الغابرة، بعيدا، بعيدا أكثر مما يتخل عقلك، في تلك القرون السحيقة و قبل ما يمكن أن تحسبوه بمئات الآلاف أو ربما ملايين السنين، كانت البشرية في علم الغيب، لا وجود لها و لا أثر، كانت هناك عشر كواكب، اصطدم أحدها بشيء ما و انسحق، بقيت أجزاؤه متناثرة في الفضاء، و سقطت إحدى تلك الشظايا على الأرض و انقسمت إلى سبعة أجزاء، كان معدنا أخضر صاف كالمرآة، و كنا نحن على الأرض، إشارات أثيرية كثيرة، كنا على عكس كل المخلوقات الموجودة على الأرض حينها، كنا بلا شكل، بلا أجسام، وعي يجوب الأثير، لا أثر حسي له.
و من بين هذه الإشارات الكثيرة، كانت توجد سبعة إشارات تتذبذب بشدة، كنا سبعة أحلام ناضجة و ملحة، أمكننا أن نتواصل، أن نشعر ببعضنا، أن نحس برغبات بعضنا، لذا كنا نتردد معا في نفس المحيط الأثيري.

و في أحد الأيام قادنا القدر إلى ذلك المعدن الأخضر، جذبنا المعدن إليه، و انجذبنا نحن، كل إشارة منا، كل وعي منا يتقد بأمنيته، بترددده القوي، فأخذت أمنياتنا تتحقق، بدأت أحلامنا بالتشكل تتجسد، و امتلكنا أجساما حقيقية فعلا، اكتسبنا أجساما تشبه لحد كبير أجسامكم هذه، كأننا بشريين أوائل، و لكن أجسامنا كانت تتشكل من الأرض التي هي حولنا، من المعادن المحيطة.

و شيئا فشيئا تأقلمنا معها، و بدأنا باكتشاف حواسنا، انبهرنا بكل ما طرأ علينا من حياة، و اكتشفنا فيما بعد كيف نتعامل مع أجسامنا، و كيف نتفاعل بها مع الأثير، كان ذلك بالطبع خلال قرون تلت.
كانت القطع السبع التي تفاعلنا معها هي قلوبنا، و لذلك كان ما يحفزنا للتجسد و التنقل هو جزء منا، أمكننا أن نتنقل في الكون، و جذبنا شظايا أخرى من المعدن، صنعنا منها قلوب صغيرة لا تحصى، و أمكننا تشكيل جيش من الجن الصغار.
غير أن الأمر انتهى إلى أن خرج عن السيطرة، و لكن تلك ليست حكايتنا.
تريد أن تعرف من أنا يا فتى، لقد كنت أحد أولئك الأوائل، الأباطرة السبعة، الأوسط، جني الذاكرة.

تفعلت قوانا بشكل تلقائي استجابة لأسئلتنا حينها، تساءل بعضنا عن المصير، و بعضنا عن الصلات الكونية، و أنا كنت أتساءل كثيرا عن الأصل، كيف بدأ كل شيء، كان الماضي يؤرقني، لأجد نفسي أتفاعل مع الأثير حتى ولجت عنصر الذاكرة، و رأيت الكون من مولده.
أجل، إنه في الأثير، التاريخ، إنه يسبح معنا، كل لحظة تمر تتحول إلى ذكرى يتم تخزينها، لا شيء يضيع.

و لكن قوتي كانت محدودة، معرفتي بتاريخ أي جزء من العالم يرتبط باتصالي بأثيره المحيط، و بالنسبة لي كان ما يخرج عن محيط الأرض هو مجهول.
بعد أن خرجت الأمور عن سيطرتنا هنا، و جن جنون الجن، ذهبت أنا و إخوتي للبحث في الكون عن كوكب يمكننا العيش فيه، و وصلنا الأرض السابعة، كانت الكوكب السابع الذي يشبه هذه الأرض، لهذا سميناها بالأرض السابعة.
التقينا فيها بمخلوقات أخرى، و بدأنا في سلام، و انتهينا بنفس الجنون و الخراب.
لهذا قررنا التخلص من هذه القلوب، لأن سعينا للسلام أودى دائما بالخراب للذين يعيشون معنا.
كان واحد منا فقط هو من خاف و ارتعش، الجني الحارس، و هو الجني الذي رفض التخلص من قلبه.

فأعطيناه جميعا قلوبنا، تحجرت أجسامنا و تهشمت، و لكن ما لم نكن نحسب حسابه أن وعينا لم يتلاشى، بل خزنته قطع المعدن، و حين اتصلت بجسم الجني الأخير تلاحمنا معه، و صرنا في نفس الجسم، و بسبب قوة الذبذبات الأثيرية، و التفاعل الشديد، اكتسب جسمه حالة من الخلود، أصبحت خلاياه تتجدد باستمرار، و أصبحنا محجوزين داخله، اكتسب قوانا، و لكن وعينا كان خامدا.

- و كيف تحررتم، ماذا حدث؟
- ما حدث أن البشر كانوا قد جاؤوا إلى هذه الأرض، و ساعدهم الجني، بنى الأطلنطيون و الأقزام آلة تحفز الأثير، آلة ضخمة و قوية، الغاية منها نقل مدينة أطلنطس من هذه الأرض إلى الأرض السابعة.

و استخدم الجني الحارس نفسه كبطارية تشغيل، مما أودى إلى استنزاف الأحجار، تحطم اثنين، و تحررت أنا و فينوس؛ جنية التواصل الكوني، أو ببساطة جنية المشاعر، جنية الحب.

هل تعرف يا غادي أن المشاعر وجدت قبل البشر، و لكننا لم نعرف كيف نتفاعل معها، لم نعرف كيف نعيش في كنفها، البشر وحدهم استطاعوا.

البشر هم من تمكنوا من التعبير، هم من اخترع اللغة، فاستطاعوا التواصل و التعبير، و أكملوا ما عجزنا نحن عنه.

المشاعر هي سلاح البشر الأقوى، اللغة هي سر تهذيب هذه القوة.

- و لكن عذرا، ما علاقة نيكولا، و هيبا، و ما علاقتي أنا بكل هذا؟

- حسنا، أظننا وصلنا لمربط الفرس، و الأمر ببساطة يا غادي أني أصبحت وعيا طليقا، لا جسم لي، و أحتاج أن أتوارى في جسم، و ليس لدي محفز، و حجز التكوين أصبح ضئيلا و لا يفيدني، هو يفيد البشر فقط، و اكتشفت أن بعض البشر لديهم ذبذباتهم العالية، و أولئك أصحاب الأحلام المتقدة و الأسئلة الكثيرة، و حين تشتد ذبذباتهم كثيرا يمكنني الولوج إلى عقولهم، كنت في البداية أبحث عن جسم أسكنه لفترة ريثما يموت صاحبه و أنتقل لجسم آخر، و بسبب شح العقول ذات الذبذبات القوية، أو العقول العبقرية كما تسمونها، أصبحت أنتقل بين بقاع الأرض المتباعدة، و في كل جسم شاركت صاحبه كنت أمثل له الإلهام، نعقد صفقة، سأبقى في جسمه، و سأساعده في فهم الكثير، و الوصول إلى أبعد مما يحلم، و قد ساعدني طمع البشر كثيرا، رغم أن قليلا منهم وصل إلى حد الصحوة.

- حسنا، أظنني فهمت

- سألتني ما علاقة هيبا، حسنا، لابد أنك سمعت بطبيب البحر، أسطورة متداولة، إنه و بباسطة هيبا، كان يحب الطب كثيرا، و مولعا بمساعدة الناس، لذلك كانت تلك صفقتي معه، تخطا حدود معقوله، و اكتشف أدوية لكل الأمراض حينها، و لكنه فشل في بلوغ الصحوة، أخبرتك مسبقا أن الحب و الخوف هما مفتاح الصحوة، و لكنه لم يملك من الحب ما يكفي، كما لم يملك غادي الآخر من الخوف ما يكفي، أما نيكولا، فقد كان يعيش عالمين، نيكولا من سلالة أطلنطس، و هو شقيق ولي العهد، أخوه الذي شاع أنه مات هو نفسه رشيد، ولي العهد السابق، و كان يعرف أنه لن يبلغ الصحوة، لذلك ركز على صناعة هذا الصولجان، كان نيكولا أكثر شخص احترمته، رجل لا يعرف اليأس، لا يستسلم، كان له قلب صاف، لا يحقد، و لا يضعف أمام مغريات الضغينة، و مع أنه لم يبلغ الصحوة، لكنه بلغ بإصراره كلا من الذاكرة و المسار، نيكولا ولج الاستفاضة، رأى الماضي و بعض احتمالات المستقبل ، و لكنه فقد الكثير لأجل ذلك، و تلك أيضا قصة لا تعنيك الآن، وقتها لاحق.
- إذن، ما هو المقابل الذي أخذه نيكولا
- لا شيء.. تخليت عن تلك الصفقة منذ زمن، لذلك أرجو ألا تطمع كثيرا

- يا خسارة، فاتتني فرصة قيمة، حسنا، و هل ستسكن جسمي بلا مقابل، من أخبرك أني كريم لتلك الدرجة
- لأنك تحتاج إلي أكثر مما أحتاج إليك.. مصيرنا واحد
- آه فهمت.. "التي" كيف سأخرجها من داخلي، كيف سأعيد لها وعيها؟
- يحزنني أن أخبرك أنك فهمت الأمر خطأ، تلك الفتاة لا تعنيك، تعني رجلا آخر، أما حبك الخيالي فتلك رحلة ستخوضها بنفسك
- حقا!، يا له من أمر عادل يا جدي الجني.. و من تظنني لآوي فتاة لثلاثة عقود ثم أسلمها لشخص آخر
- أظنك ستفعل..!!
- من يتحدث.. انتظر، هذه فتاة
- جيد، لقد استيقظ وعيها بشكل كامل، أظنك لن تتحمل صراخ هذه الثرثارة في دماغك
- ما الذي تقوله أيها العجوز..ألم تتعلم اللباقة كل هذه السنين
- مهلا مهلا.. أنت تتحدثين في رأسي، لا تصرخي بهذه القوة
- اصمت أنت أيها الصغير، حسابك معي لاحقا، لقد كنت أسمعك أفكارك الغبية، كيف تتهم عزيزي كوليبالي أنه ممسوس

- مهلا مهلا مهلا.. ماذا! كيف تعرفين كوليبالي؟
- - آووه!.. حسنا يا صديقي الصغير، هذه هي رنين، حبيبة كوليبالي الذي كان يحدثك عنها
- - حقا!، و هل يعرف ذلك العجوز هذا
- • من تنعت بالعجوز
- - اصمتي لحظة
- -حسنا يا غادي، كل ما كان يخبرك به كوليبالي صحيح، لقد أنقذته هذه الفتاة من حتفه، و قد وجدك بينما كان يبحث عنها، كان يعمل على آلة لفترة طويلة من أجل تتبع ذبذباتها، و قد قادته الإحداثيات إليك
- - و العجوز الآخر
- - كان ذلك أنا..
- - حقا!، شيء متوقع، هذا يعني أن أحمد غير موجود
- - بل موجود، لكنه ليس عجوزا، أخبرتك عن فرقة الوميض سابقا، و عن الجني الحارس، عندما فعل الجني قوته توقفت اللحظة في محيطه، و لا يزالون جميعا عالقين هناك، منذ أكثر من ثلاثة عقود، و أحمد هو قائد تلك الفرقة.. و قد اتخذت شكل جسمه، يمكنك أن تقول أن تلك كانت صورة مجسمة، و لكن بإمكانك الشعور بها، لمسها، و التفاعل معها، صورة محسنة ليبدو كهلا، كان يجب أن أبقى قريبا منك

- حسنا هناك شيء يحيرني، لماذا تظن أن الكهولة تعني بعض التجاعيد أسفل العين و شيب في الرأس فحسب، هل هذا كل ما علمته لك آلاف السنين مع البشر
- حسنا فاتتني تفصيلة، لماذا أنت غاضب
- تفصيلة مهمة، ينبغي أن تكون محترفا، ماذا لو أنني لم أقتنع
- لكنك اقتنعت، و انطلت عليك الحيلة
- ها ها ها ها ها.. أحمق..
- اصمتي أيتها العجوز
- من تقصد بالعجوز أيها الشقي
- حسنا، يكفيكما شجارا، لقد حان الوقت..

ضرب الجني عصاه حين صاح بجملته، عم صمت عارم، و اختلفت نبرة الموقف، أصبحت اللحظة جادة، و مكثت أنتظر ما سيحدث، أطل شبح شخص من بوابة المسرح، كان الليل قد انسدل حتى المنتصف، و ذلك الشخص يقترب بتأدة، يقترب، انتظر، أعرف هذه المشية، أجل، إنه هو، كوليبالي، هرعت نحوه و عانقته، كم شعرت بالألفة بوجوده، بالفرح، ربما لأنني أفتقد وجود إنسان في المجموعة، أو ربما هذا شعور الفتاة داخلي، كان يحمل كتابا جلديا بيده، بادلني العناق بسعادة و خفة روحه، كعادته، ثم أعطاني الكتاب، و قال برجاء حانٍ: "أعدها أرجوك"

عرفت ما يريد، لكني لم أفهم ما علاقة الكتاب، و لا كيف أفعلها، التفت إلى العجوز نيكولا، فهم ضياعي في الموقف، فأضاعني بعبارته أكثر:

- الدليل.
- الدليل!
- هذا هو الدليل الذي أخبرتك عنه في أول اللقاء.. الكتاب المكنون، سر العلم الخفي، لغة العلم اللدني
- ماذا تقول!، و ماذا أفعل بهذا الكتاب؟
- افتحه

فتحت الكتاب بفضول، صدمتني صفحاته، لا يحمل الكتاب حروفا أبجدية، و لا رموز، الكتاب يتحدث، بالطبع ليس كلاما بشريا، و لكني أفهم، لا، بل أشعر، لا أستطيع التوقف عن القراءة، أقصد عن التتبع، أشعر أني أستقي ما في الكتاب، أتجرعه، أبتلعه ابتلاعا، لا أعرف كم من الوقت مضى، و لكنها ساعات بالتأكيد، انتهى الكتاب، تلاشى صفحة صفحة، كل صفحة كنت أقلبها كانت تتلاشى، شعرت أن الكتاب قد اندمج معي، شعرت بلغته، لغته كونية، شاملة، أنا الآن أعرف أشياء لا يمكن أن تروى، لا تحكى، أرى ما وراء اللحظة، ما خلف المواقف، أستوعب حقائق من منظوري السابق هي خرافة، أفهم أسباب الحوادث.. لقد استقيت الحكمة اللدنية..

"إذا بلغت إلى غاية ما يجب أن تعرفه، فأنت على عتبة ما يجب أن تشعر به"

لا أعرف كيف حضرتني عبارة جبران خليل جبران هذه، و كأنها خلاصة ما أعايشه، نطقت العبارة في خشوع، ثم أغمضت عيني و أخذت نفسا عميقا، أمضيت بعضا من الوقت أتهيأ أناي الجديدة، فلم أعدني كما عهدتني، شيء ما تغير، تخطيت حدود مجهولي، و بت أعرف ما يجب أن أفعله، حدقت في الفراغ، دققت نظري، جردت مشاعري، تشكلت حولي هالة من الشعور، أراها، أسمعها، أفهمها، و يمكني التحكم في ترددداتها، يمكنني أن أحب أكثر، أن أخاف أكثر، كان الأمر بيدي، و كنت على دراية بالغاية التي أسعى لها، و بالكيفية، لأول مرة أشعر بمطلق الحرية، حررت خوفي، و حرضته، و حرضت في نفسي حب العالم، احتدم الشعوران بقربي، احتدما داخلي، تنازعاني، دارا. رقصا، تناغما، و احتدم الجنون.. انفتحت فجوة في الفراغ، و طفوت إليها، بلغت صحوتي، ولجت محظور العالم، و انطفأت الفجوة خلفي، في الركن الثابت لا وجود، إنه المنطقة الخام من العالم، ما قبل النشأة، هناك لا نجوم و لا شموس، لا كواكب، لا أجرام سماوية، هنا الفراغ العميق، بياض لا متناهي يغمرني بشعور الماء، كأن الماء أصل هذا البياض، أصل ما قبل الأصل.

طفت بالفتاة كثيرا، و تأملت جمالها الساحر، لم أشعر اتجاهها بالحب الذي ضللني لثلاث عقود، و لكني شعرت بالألفة، بالطمأنينة، كأنها جزء مني، عز علي أن يفارقني هذا الجزء، و لكني أدرك أنه لا ينتمي إلي، أغمضت عيني، غصت في أعماقي، و أفرغت عقلي من وعيها، فصلت ذبذباتها عن ذبذباتي، شرد وعيها قليلا، ثم عاد يطوف قبل أن ينغمس في عقلها، من الغريب أن نرى دقائق الكائنات، و لكنها تجربة لذيذة، استيقظت الفتاة، فتحت عينيها بتثاقل شهي، تمددت كأنها تقوم من غفوة الظهيرة، و طافت في كل اتجاه تعربد فرحها بالعودة، بالحياة من جديد، ثم فتحت فجوة و غادرت، أما أنا فقد بقيت في هذا الصمت الكوني، في هذه الأولية البديعة، كنت أشعر بفراغ داخلي، بحنين طاغٍ قد خلفه خروجها مني، ما أصعب أن تبتر جزءا منك!، ارتميت على ظهري و بقيت أسبح، أسبح، و أسبح، في هذا البعد الخارج عن إدارة الوقت، هذا البعد المتصل بلحظة الحاضر، لا يتجزأ منه ماض و لا مستقبل، إنه لحظة أبدية، "الآن" التي لا قبل و لا بعد لها.

فكرت في إعادة تجربة رنين، أن أُفَعّل تقنية التفريغ، و لم لا؟ يمكنني المكوث هنا سنين عديدة، و أن أجوب الأرض كوعي مجرد، أن أشاهد ما يجري من الخفاء، أن أنتقل من جسم إلى جسم كما يفعل الجني، يمكنني تجربة التلاشي.

أحتاج لبعض الراحة، لسبات هانئ، أشعر بالنشوة من هذه الفكرة، أغمضت عيني، غصت في أعماقي، حررت مشاعري، ضخمت الحب و الخوف، فتحت الفجوة، بدأت بحشد ذبذباتي، إنه وقت التحرر، هممت بتحرير وعيي خارج الركن، و لكنني شعرت بثقل، بشيء يصده عائدا، هناك وعي يندمج في وعيي، يعيده، إنه..إنه.. إنه الأثيري الأوسط، جني الذاكرة، ياللخيبة!!

- لن يفيدك التفريغ، من الجبن أن تهرب من مصيرك
- أنا لا أهرب، أنا أريد التحرر
- الحرية في المواجهة، في خوض التجربة، لقد وصلت للصحوة، بلغت أقاصيك، أنهيت مهمتك الأولى، دعنا نكمل ما بدأناه
- إذن علينا الذهاب للأرض السابعة، يجب تحرير الفرقة وخوض تلك المعركة
- تماما

فتحت الفجوة و خرجت، خرجنا، كان كوليبالي و رنين بانتظارنا، كان فيض الحب يغمر ثنائيهما، الحب الذي كنت السبب في لم شمله، أحسست بالرضا من تلك الفكرة، مد لي كوليبالي العصا، و استأذن للذهاب هو ورنين إلى مختبره، ليرتاحا قليلا ثم يستعدا لما هو قادم، و جلست بعدهما على مقاعد المسرح، و بدأت حوارا طويلا مع شريكي الجديد.

عند أوليات انبثاق الصبح كنت عائدا بالسيارة إلى مدينة باتنة، أعدت الأمانة لعرابتي ممتنا، و قضيت يومي معهم، ثم نمت في آخره نومة هانئة لم أجربها في حياتي، أحب هذه الأسرة، و هذا المكان، هنا بلغت راحتي في كل مرة، و هنا أدركت حقيقتي. في الصباح جهزت أغراضي و اتجهت للمطار، و حجزت للقاهرة، و هذه المرة بإرادتي، كنت واعيا، و مستعدا، ذهبت لأفي بوعدي لصبري، لأحضر زفافه و أفتتح معه شراكة عمل..

اتفقت أنا و الأثيري أن المهمة يمكن أن تنتظر قليلا، لقد انتظروا عقودا في تلك اللحظة، فلن يضرهم انتظار عام آخر، سنتستريح قليلا من أثقال الأحلام أيضا، و سأبدأ أنا بعيش حياتي بعيدا عن فكرة انتظار بلا جدوى، و بحث بلا طائل، سأعيش حرا من الإهدار، سأتنفس اللحظات الكائنة، تعلمت أن الحب لا يأتي حين ننتظره، الحب ليس مادة للاستهلاك، الحب تركيبة حياة، نظام كوني، الحب أوسع من نطاق الزوجية، و أشمل من نبضتين في قلبي مراهقين يعتقدان أن مجمل العشق هو ما يجربانه، يمكنني أن أفتح ذراعي لاحتضان العالم كله، و أن أعشق كل تفصيلة فيه، أن أحب ذاتي و غيري و محيطي، و الكون أجمع، يمكنني أن أصبح شموليا.

و كان من خططنا لهذا العام أن نؤسس لما هو قادم.

لقد أسهبت في التفكير، و في أحلامي الغريبة حتى وصلت مطار القاهرة، أمضيت ليلتي مع صبري، و بدأنا التدابير القانونية في صباح اليوم التالي، و انتهى بي المطاف في حفل زفافه، جو صاخب و مكان مكتظ بضوضاء الحياة، شعرت داخلي بالفراغ ذاته، بالحاجة الملحة لسكون كلي، رغبت في ولوج البعد الثابت، في الطفو بعيدا عن أصوات العالم، تحينت الليل حتى انتصف، و انسرقت من الحضور، كنت أبحث عن مكان غفلت عنه الأنظار، أحتاج بشدة للتلاشي، للعودة إلى لاشيئيتي، وجدت نفسي أمام المكتبة نفسها، تلك التي قابلت هباتيا.. أقصد هبة فيها، دخلت كأن شيئا يشدني، رغبت في اقتناء كتاب، هذه المرة لم أحتر، كان أول كتاب قابلني هو ديوان "قال أبي العفريت" للشاعرة روح محمد، شدني العنوان، ربما لأني أصبحت نصف جني، أخذته، كنت سعيدا لأن رفقتي في بعد البياض ستكون كتابا.

أثناء خطواتي في الشارع الأبكم شعرت بشيء غريب، ذبذبات.. أين؟ هذا المكان خال من الوجود البشري، و ما أشعر به يشبه الأحلام، أمنية قوية، ركضت، لا أعرف لم لم أفكر في الانتقال، لكني وجدت نفسي أركض و أركض، ثم أتوقف لأتأكد أن الإشارات لاتزال تشتد، و أركض.

ركضت، ركضت، ركضت بسرعة حتى وقفت عند مكانها، لم أكن أحلم، ليس وهما، كانت تقف بالقوام الفاتن، و تسرح بالنظرة الفاترة، كانت تتوهج، لم أتخيل، كانت تنبض بالنور، كانت ...

- ماذا بك؟..لم تنظر إلي هكذا؟.. ألم تعرفني؟.. ألم تخبرك رنين؟.. تلك الجاحدة.. حسنا لا تهتم.. سأعرفك بنفسي يا غادي الصغير.. أنا فينوس، جنية العواطف...

...